رائحة الموت

رواية

ليلى مهيدرة



مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ليلى مهيدرة

رائحة الموت

رواية

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان





مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

الكتاب: رائحة الموت
الموضوع: رواية
المؤلف: ليلى مهيدرة
ISBN 978-9953-594-91-0

الطبعة الأولى: 2018
تصميم الغلاف:
القسم الفني في مؤسسة الرحاب الحديثة
لوحة الغلاف: الفنان محمد سعود
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه

هاتف: 00961 3 359788 تلفاكس: 00961 7 241032
ص. ب. 11/3847- بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com



إهـــــداء

للمـــوت

الذي تفوح منا رائحته

حتى في اللحظات الأكثر حياة

هذه الرواية من نسج الواقع، وأي تشابه قد يكون مقصودا.

فالأحداث حقيقية،

قد يختلف المكان، قد يتغير الزمان.

لكنها قد تكون قصة شخص نعرفه

ومن يدري

لعلك المقصود

الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا

(علي بن أبي طالب)

*لا أدري إن كانت هناك حياة بعد الموت

لكن أتساءل هل هناك حياة قبلها*

(بيير غابي)

المسودة الأولى

ماذا تراها ستقول عني الجرائد غداً؟ ما الذي سيثير انتباههم أكثر؟ لون بشرتي الذي يحيلني إلى تلك القرية التي تتنفس هواء البحر أم هندامي، البذلة الأنيقة وربطة العنق التي تطلبت مني وقتاً طويلاً في اختيارها ووقتاً أكبر من أجل تسويتها؟

لم أكن أبداً من محبي ربطة العنق، فهي لا تعني لي شيئاً وأجد من السخافة أن أمضي وقتي في تقليب هذا الشيء الذي لا أريد أن أسميه لباسا، فقطعة الثوب هذه لا تساوي لديَّ الوقت والمال المهدوريْن عليها.

ليس الأمر فكرة مسبقة أو موقفاً خاصاً، فقط أحسها تافهة ولا تضيف أي شيء للباس صنعناه ليستر عورتنا، لكنني رغم ذلك تعمدت استخدامها اليوم ولا أدري حتى لم خطرت في فكري أصلاً!؟ ربما للتعبير عن سخط داخلي، أو لأمنح نفسي ما يراه الآخر ترفاً وربما أيضاً لأنها قد تسهل علي مهمتي الأخيرة.

من يدري؟!

لكن كان... وكنت بربطة عنق والزائرون لبيتي اليوم لا شك ستثيرهم أناقتي، سيجزمون أنني عريس الليلة وأي عريس..! حتى الحذاء الملمع

والذي اقتنيته منذ شهور ومنعني الألم من أن أنتعله، قد استطعت تحمله الآن وما عاد يؤلمني أو ربما هو الذي تحملني..

ماذا تراهم سيقولون عني؟ الأكيد أنهم سيوجهون اتهاماتهم إلي، سيتهمونني بالجبن، لا يهم، فأنا دائماً مختلف عن الجميع، أفكاري مختلفة وشكلي وطباعي وكلي، فلا يهمني ما قد يقوله الآخرون عني، ويا ويح من تسول له نفسه أنها قضية عشق سخيفة، يا لتفاهتهم وأنا الذي ما عرفت امرأة غير أمي، ويا ليتني عرفتها حقاً.

ليتهم يركزون تفكيرهم ويتساءلون معي عن معنى الانتحار؟

عن معنى أن يفكر أحدهم في أن يسلم نفسه للموت؟ أن يقرر في لحظة أن يضع نقطة النهاية لحياته بمحض إرادته، وأن يجلس في مواجهة هذا العالم ليختار وسيلة أنجع تقربه من هدفه؟

ماذا يمكن أن يخطر بباله ساعتها؟ فبعد الموت ليس هناك ما يهم، لا شكله الاجتماعي ولا من سيتركهم وراءه، ولا مغامراته ولا حتى منجزاته، علامَ يا ترى سيركز تفكيره؟ فيما فات، أم ما سيأتي فيما بعد؟ أو ربما ستكون اللحظة وحدها نصب عينيه. هذا إذا كان يفكر أصلاً، فالإقدام على الموت هو كالدخول في سرداب مظلم لا أحد يدرك ما قد يفضي إليه.

وأنا إن فكرت الآن في وضع حد لحياتي فليس من منطلق فَهم كل ما سبق وإنما لأنه في لحظة ما قد تكتشف أن حياتك كلها أشبه بمتاهة تحملك إلى ما لا نهاية، فتجد نفسك بعد كل المحاولات أشبه بمفتاح فقد أسنانه وظل يرسم الدورة تلو الدورة في القفل دون أن يؤدي مهمته المرجوة.

لا أدري لم أحسني ممثلا فاشلا، فشل في كل الأدوار التي طلبت منه وبقي أمامه مشهد واحد ليقنع به نفسه، وهو أنه قد يستطيع النجاح في شيء ما، حتى ولو كان تجربة انتحار!

لكن ماذا لو فشلت فيه هو أيضا؟! لا يهم، فإضافة فشل جديد لتاريخي الحافل... لن يربك المجرة.

سأنتحر...

قراري يحتاج فقط للبحث عن وسيلة أنجع؛ فالسقوط من على مبنى عال لا يغريني، وقد يجعل مخططي يفشل لأسباب عدة ولا حتى تمزيق جسدي تحت عجلة قطار، فاختيار طريقة الانتحار رهينة بالمنتحر كما سمعت أحدهم يقول يوما وأنا أحتاج أن أرى جسدي بعد الموت، أن أتحسس ما قد يثيره هذا الانتقال بين عالمين مختلفين، أن أتلذذ بانتصاري الوحيد إن نجحت. سأختار ميتة مريحة، هادئة تمنح الشخصية الفاشلة في داخلي فرصة أكبر للنجاح.

أحسني عازفا، عليه أن يجيد اختيار معزوفته الأخيرة على مسرح الحياة، وأن لا يترك أي شيء للصدفة. كل التفاصيل مهمة: لباس مناسب، بذلة سوداء وقميص أبيض عقدت أزراره زرا زرا بعناية كاملة، ربطة عنق زاوجت بين الأبيض والأسود في خطوط رقيقة تكاد تلتحم ببعضها لتمنح الناظر أبعادا رمادية تزيد من توهج اللحظة.

مستعد الآن أن أقف وسط الخشبة التي اشتهيت دوما أن أعتليها، أرفع رأسي شامخا كنخلة ثم أنحني قليلا بخيلاء تحية لعالم لن يستسيغ مني إلا معزوفة أخيرة، معزوفتي ستكون مزيجا بين السيمفونية التاسعة لبتهوفن ورقصة الفلامنكو، تبدأ برصانة الآلات السابحة في عالم متمازج

لتنتهي بذلك الوهج الإسباني حيث الأقدام تلتحق بالأيادي في فوضى جميلة،

فيمَ قد تفكر أطراف راقص الفلامينكو وهي تتموج في الفضاء في اشتباك وهمي مع الموسيقى، في تلاحق غريب كرسام مجنون،

أللأمر علاقة بالحرية !؟

التحرر من قيود المألوف؟

ربما

يقولون إن انطباع النظرة الأولى يعلق بالذاكرة دوما، وأنا أقول إن النظرة الأخيرة تعلق أكثر. لذا علي أن أتقن رقصتي الأخيرة وأنا الذي لم أفكر قط في أن أكون راقصا وربما هذا من أسباب فشلي،

فللرقص سلطة المرونة، وأنا ما كنت كذلك أبدا، لا يهم، الآن لدي مهمتي المقدسة التي اخترت أن أهديها لهذا العالم لعله يذكرني

أقف وسط الخشبة، يتعالى صوت التصفيق، أنحني قليلا تحية، ثم أستدير ببطء، يغرق الكون في صمت قاتل، أرفع يدي عاليا استعدادا لبدء العزف، أغمض عيني انتشاء، تمتد أصابعي تلامس الفضاء، تعلو وتنخفض في تسارع تام، تتلبس بي الرعشة الموعودة، أقذف الكرسي المرتكز تحت قدمي بعيدا، أستعيد رقصتي الأخيرة محلقا في الفضاء، كدخان سيجارة، ترتفع الموسيقى عاليا في توهج تام ثم تبدأ بانكسارات متوالية وهي تعزف نوتتها الأخيرة، ومع الحشرجة التي تكسرت لها حنجرتي كنغمة أخيرة تغرق القاعة في صمت أكبر، يتصلب جسدي، يتدلى كفاكهة ناضجة...

أُعلنُني ميتا.

1

بلقايد : الميلاد النجس

لا يعرف له اسما غير بلقايد، ولا مدينة غير هذه التي يقطنها، كهل خمسيني، يشرق مع كل شمس تطل من سقيفته كل صباح، تكاد لا تراه إلا واثبا على الحائط القصير الذي يفصل غرفته على شرفة السور القديم الملتصق بها، وحيدا كطير جريح، يقضي سويعاته هناك دون كلل ولا ملل، يراقب الفضاء الممتد عبر المباني المرتجلة في اتجاه البحر، مدينته لم تكن بالكبيرة التي قد تتيه أبناءها لكنه هو حالة موشومة بالتجاهل حتى قبل أن يترك رحم أمه.

خطيئته هي أنه يحمل اسما وسمه العار منذ الصغر وجعله منبوذا، لم يستطع استيعاب الأمر في البداية وكثيرا ما كان يعود للبيت ليسأل والدته زينب عن السبب لكنها لم تكن لتجيبه في أغلب الأوقات إلا صمتا وحتى إن أصر طلبت منه تجاهل سكان مدينته وكأنهم لم يفعلوا ذلك.

لم يكن الأمر صدفة فما خيل إليه أنه مجرد لعب طفولي سمج، تكرر وهو كبير حين تجاهله شباب مدينته وعجائزها فهو لا يزال يذكر نظرات نساء الحي اللواتي يتهامسن عنه كلما لمحنه يخترق الزقاق الضيق في اتجاه البيت الكبير حتى إنه لم ينس أبدا حين كان عائدا قبل سنين عدة، حيث

كانت إحدى الجارات تمر قرب البيت، فإذا بها تلتقي بصديقة لها على بعد متر من عتبة بيتهم فتجذب إحداهما الأخرى وهما ترددان تعويذة تحميهما من لعنة جده وكأنما قد لمحتا عفريتا حتى إنهما لم ينتبها إليه فاصطدم بهما ليزدادا رعبا. كاد يضحك في سره مما حصل، لكن تكرار الأمر جعله يغرق في صمته من جديد، فهو لم يستطع أبدا أن يعتاد على ذلك

- **أنا بلقايد وسأظل بلقايد ما دمت لا أملك القدرة على تغيير ذلك، مرارا تخيلتني أحاول وأفشل، فتغيير الاسم في حالتي مرتبط بتغيير المكان، الكل هنا يعرف من أنا، الحيطان التي أكلتها الرطوبة والأزقة الملتوية والقطط المتشردة والمتسكعون بالشوارع والنوارس فأين لي أن أذهب؟ لا أملك الجرأة للسفر بعيدا، لا أستطيع أن أنسلخ عن جلدي ولا يمكنني أن أتنكر للتاريخ الذي خطته الأقدار على جبيني»**
- **من طلب منك أن تكون غير ما أنت عليه، الناس لا يرضيها أي شيء وإن قررت أن تنبذ أحدهم لا تحتاج إلى سبب لذاك، المدن جاحدة بأهلها، كافرة بأواصر القرب، ومدينتنا ترسم المسافات بين أبنائها، أمٌّ لا تعرف كيف تعدل بينهم، والناس تعودت أن تكره كل ذي نعمة، وأنت منحت ما لم يمنحه أحد،**
- **ماذا؟ أتسخرين مني أمي، لا شك أنك تسخرين إذا كان ما بي نعمة فكيف تكون اللعنة إذا!؟**

هذا ما يتذكره من حواره مع أمه آنذاك قبل أن يخلدا للصمت، فهو لا يعرف إن كانت مدينته الجاحدة أم سكانها الجاحدين! هو يدرك فقط أنها تحب من يستميلها بالعطايا والعرق، تحب بحاريها العائدين بعد ليلة ليلاء في اليم وهم محملين بسلال السردين، تفضل العازفين على أوتار

محاسنها، الراقصين على أنغام موسيقاها، العابثة أيديهم برمال شواطئها، الطيور المهاجرة التي تعود كل صيف لترسم على سورها بعض نواميس الزمن الماضي.

هو، ترفضه لأنه لم يكبر قط وظل ممسكا بذيل ثوبها ولو بعد هذا العمر، المتربص بها من على سطح منزله. مدينته التي تحب أن تمارس مددها ليلا وبعيدا عن العيون.

لمْ يفكر قط في أن يهجرها وحتى إن فكر فإلى أين؟ فهو لا يعرف أرضا قد تؤويه ولا سماء قد تغطيه وهو العاري إلا من صمته وعزلته، المتأبط لتاريخه المرفوض، أي وطن قد يأمن لمن خانوا أوطانهم!؟ أي وضوء وأي تيمم قد يزيل عنهم عرقهم الآثم حتى تحتضنهم هذه الأوطان!؟

وحدها زينب شريكته في الإرث المخزي تستطيع أن تكون وطنا فقد كانت النغمة المنفردة في حياته. لم تكن تهتم بالآخرين، كانت تكتفي به أهلا بينما هو لم يختر العزلة إلا مرغما حين وجد نفسه منبوذا من الجميع، فمن لا يعرف القايد ولعنة القايد ولو بعد كل هذه السنوات؟ قد يتناسى الناس كل شيء إلا هذه الحقائق لدرجة أنها جعلت منها تاريخا بدل أرقام السنوات فتردد دوما: يوم اعتدى القايد على قبيلة كذا أو يوم هدم منزل فلان..

أما تاريخ وفاته فصار التاريخ المقدس المؤرخ لما قبله وما بعده فيقال قبل وفاة القايد بسنة أو بعد وفاته بثلاث سنوات أو حين تتكلم عن عام الخير فذاك يعني سنة مرضه ووفاته.

لم يهتم أبدا لتلميحاتهم ولا كانت هذه الأمور تثير حفيظته، وإن شاركهم حواراتهم اعتمد المعايير نفسها، هو الآن يفكر فقط في غفوة تزيل عنه أرق الليالي ولفحات شمس النهار التي عادة ما تصيبه بالدوار.

لم يكن مفخرة أن ينتسب لجده لأمه، وما كان الأمر ليمنحه هيبة مفترضة وهو يدرك أن جده ما فعل ذلك - فقط ولاشك - إلا لأنه لم ينجب إلا ابنته الوحيدة زينب. وهذا ما يعني أن اسمه سينمحي بموته، وأنه لم يترك خلفا. فما كان منه إلا أن يتطاول على حق أبيه فيه وحقه في الانتساب لأبيه الحقيقي.

صار هذا الانتماء القصري لجده عبئا ثقيلا، فكان كلما عبر الممر الطويل بالبيت الكبير الذي يسكنه إلا وكتب اسمه في آخر قائمة المظلومين بعد اسم أمه طبعا، ليس لأنه يحمل وزر اسمه فقط، ولا لأنها ترملت قبل الأوان بعد أن قتل زوجها، وإنما لأن سلطة القايد استمرت حتى بعد موته برفض الناس له و عبر كوابيس تملي عليه وعلى والدته أوامره فيستيقظان من نومهما فزعين ساعيين لتلبيتها، وإلا لكان مصيرهما كمصير من كانت تروي له حكايتهم كل ليلة. ومن بينهم والده المختار.

حاله لم يكن بأحسن من حال والدته زينب فهو أيضاً ورث عنها قلقها وارتباكها والكابوس المتكرر كل ليلة وهو الذي لا يذكر من جده إلا فترات انهزامه الأخيرة.

كان نصيبه هو كابوس مختلف ما كانت والدته لتصدقه حين يروي لها ما كان يحصل معه، ولا أي أحد يمكن أن يتفهم الأمر، فمن يمكن أن يقتنع أن سبب الآلام التي كانت توقظه كل ليلة هو جده الذي يتسلل إليه وهو نائم بعد أن ينتعل الحذاء العسكري الضخم ويضغط به على

حجره ولا يرحمه مهما صرخ!؟ فجده وإن مات من سنين فظلمه ما زال يتجدد كل ليلة.

نفس الحلم يتكرر، حيث يراه وقد لبس بذلة عسكرية فرنسية، وهو يتعمد أن يطأ على ما بين فخذيه، حتى يفقده وعيه، كان كلما حكى الأمر لأمه إلا ونهرته وطلبت منه أن يستعيذ من الشيطان الرجيم ويقرأ القرآن قبل النوم.

- لكني يا أمي فعلت ورغم ذلك رأيته يضع قدمه على حجري حتى أصرخ، لقد صرخت عاليا، هل سمعتني؟

- لم تستعذ بالشيطان قبل النوم.

- لكن..

- ذاك كان إبليس وليس جدك، فجدك يحبك ولا يمكنه أن يفعل بك ذلك.

كان يود أن يسألها: وهل إبليس يشبه جدي إلى هذا الحد؟

لكنه خاف من ردة فعلها فاكتفى بقوله:

- لقد فعل حتى صرت لا أقوى على المشي من كثرة الألم.

- جدك مات ومن مات لا يعود.

تجيبه وكأنها تحاول إقناع نفسها، فهي لم تكن تفهم ما يحصل معها ومع الصغير، وكثيرا ما تنزوي في ركن تبكي، وكم مرة أخبرته أن أباها القايد يزورها ليسألها أمرا بعدما أكد لها أنه سمعها تصرخ باسمه.

كانت بِضُعف مداركها لا تفقه من أمور الحياة إلا الطاعة العمياء لأوامر والدها، حتى أورثته هو أيضاً ذلك الجبن والصمت فلم يستطع ولو بعد كل هذا العمر أن يبوح لأحد، حتى وإن عاش عاجزا أو مات كذلك دون أن تكون له الجرأة على التأكد من قدرته على مضاجعة امرأة أم لا...

- لِمَ يحصل معنا كل هذا يا أمي؟ ألم يتعب من أن يفعل بنا هكذا كل ليلة؟ كيف يمكن أن نطرد كل هذه الأشباح التي تركها معلقة بجدران هذا البيت حتى نسكت همهماتهم؟

سألها يوما بعد أن تكررت تلك الكوابيس التي تفزعها فتوقظه بصراخها، لم تجبه، نظرت إليه بعين مرتبكة ثم غادرته، حتى قبل أن يتمم جملته، صغر سنه ساعتها لم يكن ليوحي له أن الحديث عن أبيها يلبسها هالة من الحزن ويكبلها بالخوف حتى إنها تحس أنه يمد يده ليحاسبها ولو على أحاسيسها الداخلية اتجاهه.

التكلم عن جده أمر محرم سواء أكان حيا أو ميتا، فذكر سيرته كمن يتغرغر بماء النار !!

وحده الصمت كفيل بأن يغرق زينب في ذكرياتها وهي تستعرض دون أن تنبس بكلمة عذاباتها وصراعها الداخلي.

مع مرور كل هذا العمر وبعد أن تخطى العقد الخامس من عمره تناسى جده والاسم الذي يحسسه بالخزي و لم يعد أحد يلقي بالا لذلك، بينما انصب غضبه ولعنته على هذا البيت الذي يسكنه وحيدا.

بيت متفرد كبير من بين مساكن صغيرة بينما يمتد سوره بينها بحجم أكبر رغم أنه لا يفصح عن اتساعه من الداخل، باب صغير يتوسط بابا آخر أكبر، والذي ربما كان يفتح في زمن مضى ليفسح الدخول لجده القائد وهو ممتطٍ فرسه، وأيضاً لمرور الأغراض الضخمة دون تكلفة، ويبقى الباب الصغير لدخول الأشخاص. مدخل البيت فسيح جدا، و يدل على تاريخه المميز، مزين بزليج مزركش وفسيفساء لم تفقد فخامتها رغم اللون الرمادي الذي اعتلاها بحكم السنين، نوافذ صغيرة مقوسة تطل على وسط

الدار وقد تآكل الحجر المنجور الذي تزينت به، حدائق لم يتبقّ منها إلا التراب الذي استحال صخرا ربما لعدم الري أو لإصابتها بلعنة جده كما تهمس النساء بالحي القديم، الشجرة اليتيمة التي ظلت صامدة قد تعرت من أوراقها وظلت كساحرة عجوز تتلبس بالحيطان وتخترق النوافذ، درج قديم متهالك يتوسط البيت في أقصى البراح، درجات قليلة تفصل بين الأرضية والسقيفة التي يتخذها مسكنا له ومعزلا عن هذا العالم الذي تبرأ منه وتجاهله

هناك بالسقيفة يتمدد بلقايد على الأريكة الوحيدة ليختلي بوالدته زينب، فهي وحدها تستطيع حتى بعد وفاتها أن تخترق عالمه الصامت، زينب التي غادرته منذ زمن ليس بالقصير، يتذكرها وهي تسهب في الحديث عن حياة لم تمنحها الكثير قائلة:

- **تدربت كثيرا على الفقد، اختبرته حتى قبل أن أتخطى القماط، صرت أعرفه ويعرفني أكثر من أي شخص آخر، الأم التي تسلمك للحياة وتغمض عينيها للأبد تظل حاضرة فيك، تُلبسك روحها التي استودعتها أمانة عندك، تكاد تحسها تحاسبك، تخاطبك كلما أحست بك وحيدا وحين يعتريك الضجر، وأنا صغيرة كانت روح أمي قد حلت بجسد أم الخير، الدادا التي احتوتني طيلة الأربع سنوات هذا ما أخبرتني به، كانت تغني لي بلكنتها الصحراوية أغنية لا أذكرها لكني ما زلت حتى اللحظة أحس بها موسيقى خلفية أسمعها كلما اشتد بي الضيق، قالت لي يوما إنها لأمي، المرأة الأمازيغية التي اختارها القايد لتكون عروسه فترجلت عن الحياة وهي تلدني، الآن أحس أن تلك الأنغام هي الصوت الخفي للفقد أكاد أسمعها كلما فقدت عزيزا**

- **أتُراك سمعتها لما فقدت جدي؟ أم أنها أغنية خاصة بالأرواح الطيبة**
- **الفقد هو الفقد، وجدك كان كل أسرتي وكل من لي بهذه الدنيا،**

تحاصره ذكرياتها يكاد يجزم أنه سمع لحن الفقد هو أيضاً عندما غادرته، لم تُسمعه إياه أبدا لكنه ترسخ بذاكرته مثل صديق قديم، صديق ظل قريبا منه كل ما خذله الآخرون، أمه أيضاً خذلته لأنها رحلت في اللحظة الأقل توقعا، خذلته كما فعل أبوه وهو ما زال جنينا ببطنها وكما فعلت أمها وهي تلدها، الخذلان هو بصمة هذه العائلة التي ينتمي إليها، يعترف أنه هو أيضاً خذلهم جميعا ولا يمكنه إلا أن يفعل، لأنه الدرس الوحيد الذي تعلمه منذ الصغر. خذلته زينب ورحلت تاركة في حوزته لحن الفقد وأرواح عديدة طيبة وشريرة حتى استحال البيت الذي يؤويه إلى مقبرة أشباح.

يغمض بلقايد عينيه لتفادي الإحساس الذي يتسلل إليه كلما تذكر ما حصل معه، من السقيفة يبدو العالم جامدا، النافذة المطلة على السور القديم تكاد لا ترصد تعاقب الفصول على مدينته المتكاسلة، يشتاق كثيرا لمطرها، لنقرات القطرات على نافذته، يتعمد الوقوف أمام الزجاج وهو يتابع المدينة التي تتعرى كليا لتغتسل من همومها، من اللون الرمادي الذي يتلبس بها كلما عصفت ريح الشرقي، يراها تتبرج كعروس صباح عرسها بعد أن يتوقف المطر، فتتمدد وتتثاءب مع كل خيط شمس يرسم بريقه على وجهها، يعشق مدينته وإن لم يستطع أن يبوح لها بذلك، يتلصص عليها صباح مساء، يحبها نائمة وقد تعرت ساقاها كفتاة مراهقة و يعشق شعرها الدائم الخضرة، شجر الأوكالبتوس الذي لا يتخلى عن أوراقه لا صيفا ولا شتاء ومهما تعاقبت الفصول لكنه يزينها كل ما حان الربيع ببعض ورده الأصفر، كريات لا يلمحها من نافذته إلا بعد أن يدقق النظر،

كانت أمه تسمح له باقتلاع غصن يزاوج بين الوريقات الخضراء والكريات الصفراء كنوع من الزهو بالربيع وكثيرا ما يحاول غرسها بين وريقات الشجرة اليابسة بقلب البيت

- **لِمَ لا يأتي الربيع إلى بيتنا، أمي؟**

كانت زينب تدرك ما يرمي إليه لكنها تتعمد أن لا تجيبه فالشجرة اليابسة بقلب البيت الكبير لا تتخلى عن لونها الرمادي أبدا ولا أحد يدري السبب. ربما لأنها عجوز كما تمازحه أمه دوما، كانت شجرة صامتة تحسها هي الأخرى مسكونة بأرواح من مروا بالمكان.

كان يقضي ساعات طوال بالنهار يرقبها وهو صغير، لكنه كان يجزم أنها لم تكن تتحرك إلا ليلا، لتحتل فضاء أكثر مخترقة النوافذ المطلة على البراح. كثيرا ما كان يحلم بها تتجول في فناء البيت بعد أن يخلد الجميع للنوم حتى خيل إليه أنه يسمع حفيفها.

- **الأشجار كائنات حية مثلنا، تكبر وتشيخ وتموت أيضا، وشجرة البراح قديمة جدا فلا أحد ممن عرفتهم يذكر متى غرست ولا من غرسها، هي سبقتنا إلى هذا البيت وربما تعرف أكثر منا.**

ثم تعقب قائلة

- **التسليم أولدي، حتى هي راها بماليها**

تعويذة لطالما سمع أمه تكررها كما سمع جيرانه أيضاً يفعلون، كلمة توحي بالاستسلام التام وانتفاء نية الأذى للأرواح التي تسكن كل شيء في هذا البيت حتى تتقي شره، التسليم هنا تعبير صريح عن الخضوع اللفظي ما دام الخضوع العملي متجسد بحركاتهم وسكناتهم، جملة لطالما سخر منها لكنه مارسها بتجنبه لأماكن متعددة بهذا البيت، قد لا يحتاج

هو لترديدها كما كان يفعل وهو صغير لكنه في قرارة نفسه مؤمن بها ومتنازل لها عن المكان ككل ومكتفٍ بسقيفته

قدره أن يقتسم هذا البراح و أشباحه التي استوطنته منذ أن كان جده قائدا قُبيل وإبان فترة الاستعمار وربما قبل ذلك بكثير، ولطالما سخر من الأمر وهو يمازح والدته بعد أن صار شابا وبعد أن أدرك أمورا عدة.

-كيف تحرر الوطن من المستعمر وظل بيتنا مستعمرا بأشباح جدي ومن معه!؟

كانت زينب تزجره وتغضب من تعبيره المستفز، وكثيرا ما ندم لأنه كان يدرك أنها تتألم من تلك العبارات، الآن يعترف أنه معتقل هو أيضاً بين جدران هذا البيت، وكثيرا ما أحس أن هناك قيودا خفية تقيده إلى جدرانه حيث لا يملك له لا بيعا ولا رهنا، ليس فقط لأنه في إطار نظام الوقف الذي كان جده قد وهبه له كنوع من التصالح مع وطنه وربه، ولكن لأن هناك قوة خفية تربط مصيره بالمكان وكأنها تجعل منه شبحا حيا ما دام يحمل ذلك اللقب الذي يربطه بجده وبتاريخ هذا البيت.

فالجد الذي منحه اسمه، ترك له هبة ملغومة مادام لا يستطيع التصرف فيها، فمن لم يتعود أن يثق بأحد كيف له أن يثق بصبي ليس من صلبه حتى وإن منحه اسمه وكل الخزي الذي يمثله.

لم يكن له أبدا حق في الرفض في أن يقول لا لتاريخ يمقته منذ لحظته الأولى، أوجده فقط ليجعل منه شماعة يعلق عليها الآخرون أوحالهم وخزيهم، كان ثورا معصب العينين عليه أن يسير وفق مسار رسم له فلا يبرحه. ولطالما دفعه طيشه وهو مراهق بأن يحاسب والدته وإن أحس كثيرا بالندم بعد كل هذا العمر فهو الآخر لا يملك أمام نسبه لجده شيئاً

- **-لِمَ لِمْ تهربي يا أمي؟ لم لم تعتصمي بحبل تلك القرية المطلة على المحيط؟ كان طيف أبي سيتلقفك ويمنحك الأمان، لِمَ ظللت هنا ورسمت لي حياتي سيمفونية من الألم والفقد؟ لم ارتضيت لي البقاء في مكان يرفضني حتى قبل أن أُولد؟ أتراك منحت حق الاختيار فرفضت أم أن الأقدار كانت قد رصدتك لتكوني قربانا بهذا البيت والخادمة المطيعة لأشباحه؟!**

كم تمنى لو لَجأت أُمه لتلك القرية حيث نشأ أبوه، فهو لم يغفر لها أبدا كونها لم تنبته في تربته، ليتعلم كيف ينمو كما أشجار التين الشوكي على جنبات الطرق، لتتسخ قدماه بتربتها المبتلة، كان سيكون فلاحا يعرف كيف يسقي الأرض عرقه فتمنحه راحة نفسية ونوما هنيئا متى أغمض عينيه. كانت القرية ستقبل به حتما لو جاءها بدلا عن ابنها الذي لم يودعها، أبوه الذي ثَكلته، فَلم يرفع كفه للسلام الأخير لتلك الجبال التي احتضنته صبيا ولا لموج البحر الذي داعب أصابع قدميه في انتشاء، ولا رسم على شباك الصيادين آخر تعاويذ السفر، ولا سنابل القمح انحنت على جبينه لتقبل ابنها البار.

- **ما أصعب الرحيل وأنت بعيد، حتى إنك لم تمنح قريتك الصغيرة فرصة أن تغسلك بمائها وأن تكفنك بتربتها وتحتضنك كأم مكلومة، أتراها صدَّقت بموتك، أم مازالت تجلس على الربوة المطلة على البحر تنتظر ابنها المقدام متى يعود، وتغني بصوتها المبحوح:**

-دابا يجي يا لكبيدة دابا يجي

هل تبكي القرى أبناءها أم تنساهم مع زغاريد المواليد الجدد، أتسمح أعرافهم بأن تحتضنك تربة غير تربتك، قيل إن القايد رماه بالبحر بعد أن

غدر به، فهل القرية كانت تدرك ما قد يحصل لابنها المغوار، ولهذا استوطنت الربوة المطلة على المحيط في ترقب دائم لعودته؟ أتراها تلقي تحية كل صباح في حضرته لعل الموج يحمله إليها فينام في حضنها فتستريح من عذابات الانتظار؟

هكذا كان يحاور والدته زينب دوما في داخله حتى بعد وفاتها و كلما حاصرته ذاكرة المكان، فهي لم تغادره قط رغم مرور السنين وحتى بعد أن تجاوز الخمسين من عمره .

مسودة ما بعد الانتحار

معلق أنا الآن

معلق من رقبتي بنفس ربطة العنق التي تعبت في تسويتها بسطح بيت من هذه المدينة التي ابتلعتني طفلا، ورفضت أن تمنحني حق الاختيار.

أنا هنا أنتظر العيون التي عادة ما تعتلي المكان لتتلصص على الجيران في نشوة، وأن تستكمل حكايتهم ببعض وشاية وكثير من التخيل؛ وإن كنت هنا منذ ساعات فالوقت لم يعد يهم الآن، فقط هي رغبة مني في التعرف عمن سيكتشف جسدي المعلق.

وعن تلك الصرخة الأولى التي قد تستجمع الجيران الفضوليين وغير الفضوليين ورجال الشرطة والصحافة الصفراء والبيضاء.. كلي شوق وشغف لما سيقولونه عني، عن هذا الشاب الثلاثيني الذي قرر أن يسلم نفسه لمشنقته دون أسف، منتهى الشجاعة أن تقرر أن تموت من أجل صراع عشت زمانك تكابده، ثم اكتشفت أن وحده الموت قد يريحك منه ويجعل المتسائلين عن جديته من البداية يعتنقونه ويجعلون منه قضية رأي عام.

قضيتي بسيطة جدا وربما لن تحتاج لشرح كثير، لكنني الآن متشوق لرفع الستار تدريجيا عن هذا الجسد المعلق، والذي يحتاج لاهتمام خاص من كاميرات التصوير وأيادٍ تترفق به وبأشيائه بعد أن لبست قفازا خاصا حتى لا تفسد موتته، وهو الذي طالما عبثت الأيادي بحياته، فلم يكن له يوما خيارٌ حتى في كأس ماء لأنه ساعتها سيكون مجبرا على ملء براميل تفوق حجمه الصغير من ساقية الشارع المجاور.

سامحوني لا استطيع البوح أكثر إلا في حضور رجال الأمن. ونحن أحياء نبحث عن الإنصاف فلا نعترف إلا بحضور محام، أما بعد الموت فلا نريد إلا القسط اليسير من الحقيقة حتى لا تحور قضيتنا وتكون تتمة لملف شائك عالق في أحد الرفوف، فأكون الجاني وأنا معلق من رقبتي طواعية، فلم يعد لي ما أدافع عنه إلا قضيتي هذه.

الشمس المطلة من بين البنايات الباسقة التي طالما اختنقتُ لمجرد التطلع إليها من الأسفل، كانت باهتة هذا الصباح، ربما لأنني ما عدت أنتظر منها إلا أن توقظ نساء عابثات بمصائر الناس وحياتهم، ومع ذلك ها هي قد أطلت وهن ما زلن نياما أو ربما شغلتهن عني حكايات أخرى أكثر إثارة.

لا يهم، فكما كانت تردد تلك السيدة العجوز التي طالما جاورتها بالزقاق المتعفن، حيث كانت تثيرني طريقتها في السباب وتفننها في إغاظة أهل الحي وهم يجودون على سلة المهملات بما فاض عنهم حتى لا يكون لها نصيب منه لعل الجوع يقتلعها من الزقاق فتجيبهم:

- **أنا هنا حتى أموت، وساعتها قرروا أن تدفنوني أو تتركوني أنشر رائحة الموت بالمكان.**

أنا مثلها اليوم لا يضيرني من الموت شيء وما عدت أشفق على من ستزعجهم رائحتي متى تعفنت، فربما القدر وحده من يحدد متى وكيف سيحملونني إلى مكاني الأخير.

دقائق معدودة فصلت بين الصرخة المنتظرة وتجمهر رجال الشرطة والمتلصصين.

وكنت النجم الأوحد الذي تشير إليه الأصابع وتُهَمْهِم عنه الألسن سرا وعلانية. اليوم فقط اكتشفت أنني ما كنت أعبر الشارع في غفلة من أهله، وأنني كنت المرصود دوما والمحسوبة خطواته وسكناته. ما أجمل الإحساس بالشهرة وأنت الذي عشت زمنا تحسب نفسك أنك شخص غير مرئي، حتى إنك لتقف لساعات طوال أمام دكان لتقتني علبة تون وخبز، فترى صاحب الدكان يبتسم في وجه الجميع ويلبي طلبات الجميع، حتى الأطفال منهم وهم يتسللون من بين ساقيك، وتكون أنت آخر من يلبَّى طلبه، وربما أمدك بما تريد دون حتى أن ينظر إليك، وسلَّمَك أغراضك بعد عد للمال بشك مبالغ فيه حتى تُسلبَ لذة ما اقتنيت.

- **علبة تون ورغيف،،، تون ورغيف،،،، رغيف وتون**
- **من قال لك إنني أطرش**
- **أقف هنا قبل الجميع ولم تهتم لطلبي**
- **وتراني أعمى أيضاً**
- **لم أقل،،**
- **كم معك؟**
- **خمسة دراهم**
- **هاتها،، خذ،،،، أولاد الحرام ما خلاو لأولاد الحلال والو**

يتكرر الحوار مرارا ومع ذلك ها هو الآن، هو نفسه، بقال الحومة المبجل يقف أمامي تحسرا على أنه فقد زبونا مميزا وخلوقا، والغريب أنه لما سأله الشرطي عن اسمي تلعثم وبدأ وجهه يتخذ ألف لون ولون،

- **عادة كنا نناديه سي محمد**

والسيدة العجوز التي كانت تختار لحظة مروري لترمي بالماء الوسخ من نافذتها الآن تبكي هذا الشاب المأسوف على عمره.

- **العربي..30سنة..أعزب**

كان الشرطي يقلب بطاقتي حتى استوقفته كلمة أعزب، استدار لسيدة كانت تدس رأسها بين زحام رجال الشرطة

- **هل كانت لديه زيارات نسائية؟**
- **ها..؟**
- **من الذي يسأل؟ أنا أم أنت؟**

أضحكني مشهدها وقد ضاقت عيناها خجلا وربما خوفا، حتما لم تجد جوابا إلا أن تعود للوراء مختفية وسط الجموع، بينما الشرطي يجدد التمعن في ملامحي كأنما ينتظرني أن أجيبه عن استفساراته، حدق في تفاصيل وجهي وشكلي وركز كل بصره على ربطة العنق:

- **أعجبتك؟ لاشك أنها أعجبتك، لا تقل إنني لم أُجد عقدها، سأغضب، قد أتجاوز أمورا عدة أيها الضابط إلا هذه التفاصيل الجزئية، فالسر كله في ربطة العنق سيدي...**

ظل يمعن النظر إلي حتى انشقت صفوف المتجمهرين عن امرأة شابة، في العشرينيات من عمرها، فاتنة الجمال، رشيقة كحمامة، عيناها تنبض بالحياة من وراء نظارات شمسية و...

اعذروني نسيت أنني في موقف لا مكان فيه لمثل هذه التفاصيل.

التفت إليها الشرطي محييا بينما هي ممتعضة من كل شيء، من كلامهما أدركت أنها الطبيبة التي تم استدعاؤها على عجل لتتابع ملفي، ملف الشاب الغريب الذي قرر أن ينهي حياته مع انبثاق فجر هذا اليوم.

تمتمت بكلام جارح عني لكنني طبعا لن أهتم بهذه التفاصيل التافهة، فلا مقارنة بين سيل الشتائم التي تقيأتها وهي تنظر إلي بتقزز وإلى الغرفة البائسة.. وما أناله من شرف هذه الزيارة الغير المتوقعة طبعا.

- **لو علمت سيدتي بأن ميتتي هذه ستمنحني كل هذا الشرف لأعدت ترتيب الفضاء ولنثرت الورود على جوانبه فيكفي أن تشهد أرضية بيتي المتواضعة خطوات نسائية حتى وإن كانت بلباس رجالي وشعر ملفوف تحت قبعة وعينين عسليتين من وراء نظارة سوداء. صدقا، أنا نفسي ألوم نفسي لأني منعتك فرصة التثاؤب أكثر على فراشك الدافئ هذا الصباح، ومن شرب فنجان قهوتك على شاطئ البحر، والاستمتاع بمراقبة النوارس وهي تعيد رسم السماء بأجنحتها في سفر حالم، وأرغمتك على الانتقال إلى بيتي المتواضع لتتفقدي ميتتي الاختيارية في هذا اليوم الجميل**
- **هل من مؤشر؟**

سَألَت الشرطي وعيناها تمشط المكان

- **لا.. كل الأمور عادية**

كدت أصرخ من مكاني لأستفسر عن العادي في كل ما يلحظه، أنا العادي أم وجودي هنا أم انتحاري؟ أو ربما هذا هو التعريف الأمثل عن العجز في لمح المريب مما حصل.

يا لسوء حظك أيها المعتز بربطة عنقك حتى الموت! المعتنق لقضيتك حتى النهاية! حين يجزم رجال الشرطة أن الأمر عادي جدا، وحتى لا تتفقد الأنامل الرقيقة حالتك و تكتفي بالأمر بإنزالك، بعد أن تلتقط لك صورا من كل اتجاه، لك ولكل أغراضك،

تبا لي ولأغراضي فقد نسيت الرسالة.

الرسالة...! أخخخ نسيت... كان عليَّ كتابة واحدة تسهل على الجمع الكرام مهمتهم كما يفعل كل المنتحرين، يا لغبائي!

غصة في الحلق أعجز عن التعبير عن وصفها صدقا، ولا عذر لي إلا أنها أول تجربة انتحار لي. اعذروا جهلي وتجاوزوا عن سوء تجربتي، فمع كل المحفزات التي كانت تدفعني لإنهاء حياتي لم يكن هناك دفتر إرشادات ولا ملصقات توجيهية، تقصير لا يغتفر فكيف يسمح بالمرور بين عالمي الحياة والموت دون علامات مرور وإشارات توضيحية،

ماذا لو وُضع في متناول المنتحرين الجدد ملصقٌ كبير يحمل شعارا من قبيل: *من أجل انتحار ناجح*؟ أو مطوية توضح ما يلزم المنتحر للمرور إلى العالم الآخر وهو مطمئن على ما قد يخلف وراءه من علامات استفهام في هذا العالم، مطويات توزع مجانا على أعتاب الانكسارات؟!

فمن يقدم على فعل الانتحار لا يكون عادة بكامل وعيه ليفكر في كيفية المرور الآمن والناجح بين العالمين.

وأنا كنت أظن أن معرفتي ببعض الحالات التي نجحت في الانسياق وراء انهزامها إلى درجة الانتحار تكفيني لكي أخوض التجربة أيضا، للحظة كنت أحسني خبيرا يكاد يستشف أنواع هذه الانكسارات، فالانهزام الشخصي المتكرر يختلف عن القرارات الفجائية، والضغوطات النفسية الداخلية هي غير الأسباب الخارجية والهروب من الفضائح الأخلاقية والاختلاسات.

يكاد فكري يستعرض الآن حالات كثيرة من الانتحار سمعت عنها أو عايشتها بمدينتي البائسة، حالات لم تكن متشابهة إلا في نجاحها أو فشلها في إنهاء حياة المقدم عليها، حالات نقف عندها لحظة الوقوع، نبتئس، نتساءل ثم ننسى.

وحدها حالة سعيد التي ظلت عالقة بفكري، لأنها لم تجب على السؤال بداخلي حول السبب! فكيف لطفل في العاشرة أن يصاب بالإحباط لدرجة أن يسلم نفسه للموت؟!

قيل إنه لم يكن طفلا سويا، وقيل إنه طفل مدلل، وحكايات كثيرة، فالرسالة التي تركها على سريره لم تكن كافية، كلمتان لا تشبعان النهم للفهم، كان بخيلا في تصريحه حين رسم على ورقة دفتره المدرسي:

"ليتني ما ولدت"

جملة بكل اليأس الذي قد يتلبسنا، ويعمق الألم بداخلنا، ومع ذلك لم تجب على تساؤلنا حول طفل في العاشرة وحيد والديه، متميز في دراسته، مشهود له بأخلاقه، محبوب بين أترابه، ينهي حياته في غفلة من محيطه برمي نفسه من أعلى مبنى بالمدينة!! وحدهم المتسكعون بالشوارع مثلي

شهدوا سقوطه، كنت الأقرب لأشلاء جسده، لقطرات دمه التي انتشرت بالمكان.

لم يترك بداخلي أي إحساس ساعتها، فقط أدركت أن حياتنا أرخص من قطعة فخار منكسرة، لكنني تألمت بعد ذلك حين أدركت أنه لم يكن إلا طفلا في العاشرة.

"ليتني ما ولدت"

جملة ظل لساني يرددها، وظلت عالقة بفكري حتى دون وعي مني، لكنني الآن وبعد أن أسلمت نفسي للموت مثله أقول:

جميل أنني انتحرت، الموكب البهيج الذي خصص لي، سيارات الشرطة التي تقدمت جثماني، الجماهير التي اصطفت ما بين متشف ومنبهر وطبعا الحكايات التي رويت وستروى عني.. كل هذا أنساني الطفل سعيد وموضوع الرسالة والطبيبة الجميلة وجيراني الأعزاء.

لقد اكتشفت أن الموت جعل مني شخصية عامة، وأنه كان يكفي أن أنتحر لتتحقق لي أحلامٌ ما كنت أجرؤ بالحلم بها حتى في نومي، لكن صدقا غادرت بيتي كما لم أغادره قط.

2

عـرس الفقـــد

غادر المختار - والد بلقايد- القرية التي ينتمي إليها والتي تقع على ساحل المحيط الأطلسي، تاركا عائلته التي احترفت الزراعة والصيد في نفس الوقت، ككل أهل القرية الصغيرة. كانوا يشتغلون بوسائل بدائية محدودة، فالنساء لهن مهام الحقل وتربية الأغنام والدواجن إلى جانب الأعمال المنزلية وتربية الأبناء، بينما يكتفي الرجال بالصيد البحري بقوارب صغيرة، وأحيانا أخرى بقضبان حديدية حين يتعلق الأمر بصيد الإخطبوط الذي يجيد الاختباء في الصخور ما بين مد وجزر.

لم يكن أبوه وهو الابن الأكبر لعائلته يهتم بالزراعة ولا الصيد، فقد كان أكثر ذكاء وحنكة، كان قد احترف التجارة، فكان ينتقل ما بين الحاضرة والقرية مثقلا بما تجود به الأرض والبحر حتى علا شأنه بين التجار رغم حداثة سنه، فكانت كلمته مسموعة بين الجميع نظرا للخبرة التي اكتسبها بالسفر واختراق عوالم أخرى عادة ما تجود على القبيلة بالعطاء الكثير، وهذا ما قربه من القايد الذي كان يردد دائماً أنه يذكره بشبابه وبتمرده على المعتاد والبحث على تطوير قدراته رغم الظروف المحبطة، حتى إنه لم يتوانَ عن تزويجه ابنته الوحيدة زينب

- **أبي! يا أبي! أيها الذي اختارته الطبيعة ليزرعني في رحم زينب ثم يموت بعدها، هل ألومك لأنك لم تصمد أكثر،أم أعتذر منك لأنني أرغمت على حمل اسم غير اسمك ولم أتمرد؟ إن كان عذرك الموت فما عذري أنا المكبل بالحياة؟ مالي لم انتفض لأنتصر لك بعد كل هذا العمر، وأن أحررني من ثقل هذا الاسم الموسوم بالعار؟ أعترف أمامك بجبني، كنت أشجع مني حين تحررت من القرية المكلومة، شجاعا كنت إلى حد التهور، أليس من التهور أن تضع يدك في يد القائد حتى وإن كان الأمر من أجل هذه الشابة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها؟ ألم تحس أبدا أنك مجرد مطية حتى تضع نطفتك برحمها فيصوغ النطفة هو كما يشاء؟ وحتى أكون أنا الحامل الوحيد للخزي، الناطق باسم العار التاريخي للعائلة!**

المختار، هكذا كان اسمه، وربما كانت صفته أيضاً بما أنه اختار أن يتجاوز كل المعيقات، وأن يكون علامة فارقة في قبيلته، كان شابا لم يتجاوز العشرين من عمره حين عقد قرانه على زينب بنت القايد كما كانت تحكي له هذه الأخيرة، أسفاره المتعددة جعلته يتحرر من اللباس القروي المعتاد في مكان مولده فكان رغم انشغاله بالتجارة مهتما بأناقته التي تزيد توهجاً حتى ليأسر كل من يخاطبه، لم يستشرها والدها في اختياره ولكنها كانت تدرك أنها مرصودة لمن يختاره لها.

استمر العرس سبع ليال وسبعة أيام، كان البيت الكبير خلية نحل تعج بالخدم والضيوف والهدايا من كل صنف ولون، فزفاف ابنة القائد كان وسيلة للتقرب منه بالعطايا من كل القبائل، كان القايد هو الصوت المسموع كالعادة، والمقرر لكل صغيرة وكبيرة في حفل الزفاف، بينما زينب الطفلة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها مغيبة تماما عن كل هذه التحضيرات! شأنها شأن العريس المفترض الذي لم تتمكن من أن ترى وجهه

إلا في اليوم الخامس بعد سلسلة طقوس، كلما تذكرتها إلا وعلتِ الحمرة وجهها خجلا.

لم تكن تهتم وهي تستعرض ذكرياتها بالمساحة البيضاء التي لم تدرك منها أي شيء، بينما تسهب في الكلام كثيرا عن طقوس الزينة والهدايا البراقة التي دخلت خلوتها، الحمام البلدي الذي أُفرغ لها والمرافقات اللواتي كن يزغردن مع كل انسياب للمشط بشعرها، نقش الحناء الذي برعت النقاشة في رسمه على كفيها وقدميها، القفاطين التي ارتدتها طيلة يوم وليلة وسط أهازيج شعبية تتغنى بمحاسنها ومناقب العريس وكرم القايد الذي أدهش ضيوفه، وعلى رأسهم المقيم الفرنسي وأيضاً أعيان المدينة ورجالاتها آنذاك،

- **ماذا يمكن أن ينتج عن عرس تُزكيه القوى الاستعمارية و مجمع الخونة والانتهازيين، إلا عبدا خنوعا مثلي، تركيبة حددت مصيري حتى قبل ولادتي، توليفة سقتني الخزي والذل، لا يمكن أن أكون إلا تركيبة غريبة للخيانة، صنفا جديدا، عاجزا على رفع أصبعه لتغيير ذاته، شخصا يقتل وطنه بالصمت والخمول، مستعدا أن يرسم وطنه خارج مداركه وأن يحاسبه لأنه وهو منعزل عنه ينتظر منه أن يأتيه مطبطبا كما تفعل زينب دائما، خائنا جديدا، هكذا أراني. عنصرا لم يستطع إلى الآن أن يكون وطنيا كما يجب، نغمة نشاز في سيمفونية الانتماء..**

لم تكن زينب تهتم وهي تروي ما حصل معها بالصراع الذي يغرق فيه ابنها، فهي لها تفاصيلها وله تفاصيله حتى إذا ما وصل الحديث عن لقائها الأول بعريسها، غرقت في صمت خجول قبل أن يغيبا معا في أحزان مشتركة لم يتحررا منها أبدا. هي، لأن أباها لم يمنحها الحق في السعادة التي توقعتها، بما أنه بدأ يُضيق الخناق على زوجها منذ الأسابيع الأولى

لزواجهما وهو، في عالمه الخاص وإن اجتمعا معا في نقطة الأب الذي غدر به.

هل أدرك والده أن حفل الزفاف ذاك ورقصات العرس المهيجة للأجساد كانت تستدرجه لرقصة الموت، كانت تعلنه ذبيح الليلة المختار وأن طموحه الكبير قد جعله يعلق في شباك القايد الذي لا يرحم وأنه بقبوله بشروط هذا الزفاف قد أغلق على نفسه في حلبة ثيران مع **ماتادور توروس** لا يرحم.

حضوره القوي دفع القائد أن يقربه منه لعله يستفيد من ذكائه حتى إذا ما فشل، تعمد التخلص منه غير آبه لمشاعر ابنته ولا للجنين الذي تحمله في بطنها.

لم يكن بمقدوره أن يمنع والدته من استرجاع كل ما حصل، فكان يصغي إليها قبل أن يغرقا معا في صمت حزين. حزين هو معها وعليها وعلى نفسه، يكاد يتخيلها ابنته وهي تروي ما وقع، يكاد يراها طفلته وهي التي لم تتجاوز الرابعة عشرة ببطن نصف منتفخ ولباس الحداد والدموع الممنوعة بأمر من أبيها القايد حمو

- **كم أشفق عليك صغيرتي، وكم أحسني لحظتها حاضرا ليس كجنين أعزل في بطنك فقط، وإنما روحا تتمنى لو تحضنك لتزيل عنك كل تلك الآلام، فأحيانا نحتاج أن نواجه أوجاعنا سويا وفي وقت واحد، لا أن تُحكى لنا تباعا فنعيشها ونعيش آلام من عاشها قبلنا، فنتألم بشكل مضاعف، نتألم منها مرتين، نحتاج أن نكون جسدا واحدا أمام سيل الكوارث فينقسم تأثيرها علينا في الوقت ذاته. وحتى لا يصبح الماضي شريطا تستعرضه ذاكرتنا دوما فنحس أن الكون تقلص، وأن السماء غَدت قريبة من الأرض تكاد تطبق علينا.**

مسودة الاعتراف

الآن.. أنا ممدد على طاولة مستطيلة، ومغطى كليا بإزار فقد بياضه واعتلاه الصفار، وسط غرفة فارغة تقريبا إلا من كرسي محاد لطاولة مربعة ملتصقة بالحائط، قد تستخدم كمكتب ربما، رصت عليه بعض أوراق غير مرتبة، بينما الجانب المقابل كانت المشارط قد صفت عليه بعناية مستفزة كعدائين واقفين على مضمار السباق منتظرين صفارة البدء للانقضاض على جسدي النحيل، وعلى يميني علقت وزرة بيضاء، أكاد أشتم فيها عطر صديقتي الطبيبة، باقي الغرفة الواسعة فارغ تماما- -

يحيط بي الصمت من كل مكان وأنا أنتظر الأنامل الرقيقة متى ترتدي قفازها لتعبث بأعضائي. ميت مطيع أنا، لا تقلقه المشارط ولا ما يمكن أن يُفعل بجسده، وإن كنت أعرف مسبقا ما قد يفعلونه بي، أو بصحيح العبارة ما قد تفعله بي طبيبتي الممتعضة، وكيف أنها قد ترسم على جسدي النحيل بمشرطها الجميل تاركة ثقبا هنا وخطا هناك لعلها تستبين الغير عادي من العادي الذي أشار إليه الشرطي فأصير بعد ذاك تقريرا، مجموعة أحرف قد تحدد سبب الوفاة.

ماذا تراه سيقول لكم جسدي المنهك بعدما صرخت لسنين وأعوام بحالي وباللسان الفصيح ولم تستسيغوا ما أقوله؟!

لا عليكم، فأنا مستعد لإعادة رسم خيوط الحكاية، ولو لهذه الحيطان الباردة مثلي وللمشارط والأوراق المرمية هنا وهناك..

وأنت منتحر تمتلك كل الحق في إعادة رسم خيوط حياتك كما تحب، فقط عليك أن تكون مقنعا، القدرة على الإقناع وحدها تجعل الآخر يصدق ما ستقوله، أن تقدم له البرهان الكافي الدافع لما فعلت، أن تقنع الآخرين ضِعف ما أقنعت به نفسك قبل أن تستسلم لمشنقتك، خذ كل الوقت الذي يلزمك للسفر لماضيك، لتدرك الحقائق كما وقعت، أو كما خيل لك، فعندما نقرر أن نروي حكايتنا فليس بالضرورة أن ما سنقوله هو الحقيقة، قد تكون ما قد تصورناه كذلك فقط، من وجهة نظرنا على الأقل، وربما بأبعاد مختلفة،

فقط افتح ملفك العمري واستعرض الحقائق كما تحب وحتى دون تجميلها، فهي حياتك وكفى.

وأنـــا المنسي هنا بهذا الفضاء البارد حيث يرسمني الصمت لزمن بعيد وأنا طفل صغير، أجدني وتلك الشمس الدافئة التي توقظ البحر من نومته على ربوة منحها الله جمالا آسرا وصبية صغار تعودوا أن يستفيقوا على الشاطئ للعبث بما تركه البحر بعد مد وجزر، حتى قبل أن يبتل ريقهم بكأس شاي ساخن وكسرة خبز، فالأمر عندهم لا يستحق الانتظار. كنت معهم أعبث كما يعبثون، وألاحق الطيور التي تتسابق وإيانا على البقايا المبعثرة على الرمال المبتلة في زهو بالمكان، صرخاتنا كانت هي الحياة ذاتها، وهي الحرية، وهي كل ما قد يدعونه حقوق الطفل.

أدركنا الأمر صغاراً بفطرتنا، وكنا كلما أتعبنا الركض رفعنا أعيننا هناك للربوة العالية المطلة علينا، حيث عين الجدة فاطمة ترقبنا بحب ما دامت أقدامها المتعبة تحرمها من أن تقتفي آثارنا، كانت كلما أشارت لنا بيديها ازددنا زهوا بالمكان وبأنفسنا حتى تخال أننا نوارس بأجنحة.

كان عمري يومها خمس سنوات. كم غريب أنت أيها الموت حين تعيد ضبط التواريخ في الذاكرة بشكل مريب! خمس سنوات فقط حين قررت يد غريبة أن تقتلعني من عالمي، أرفع رأسي للربوة لعلي أستنجد بنظرات الجدة فاطمة فلا أجدها، تكبلني اليد الآثمة وتضعني في شوال على ظهر دابة فتظل يدها ممسكة بي، والأخرى تقودها وتركلها حتى لا تتوقف وصراخي كان يعلو أمام صمت رهيب للعيون الصغيرة التي تجمدت في مكانها خوفا من أمنا الغولة التي اختارتني اليوم غذاء لها، عَدَتِ الدابة مبتعدة بي عن رفاقي الصغار وكان جسمي الصغير يعلو وينخفض فتتخذ صرخاتي تموجا يكسر هدوء الفضاء مستأنسا بهدير الموج.

كنت كلما أرهقني الصراخ صمتت لأرقب وجهها، ثم أتذكر ما انتابني وأعاود الصراخ من جديد ويدها الضاغطة على جسدي الصغير لا تكل ولا تمل، ثم أصغي من جديد لعلي أستمع للأقدام تجري نحوي لتحررني من قبضة المارد، لكن لا أقدام ولا صراخ إلا صوتي الذي يتردد صداه في عالم تتشابه ملامحه.

لا أدري كم استمر الأمر؟ لكنها لم تتعب أبدا من شدي راكضة خلف الدابة، تعمدت أن تبتعد بي قليلا عن الخط الساحلي وتخترق الكثبان الرملية، أرهبني الأمر، ارتفع صراخي أكثر، زاد ضغط يديها على كتفي الصغير، أسرعت أكثر إلى أن أدركت بعض المعالم لمبانٍ قديمة مهدمة في أغلبها، اخترقت إحداها في توجس تام، حتى أيقنت أن لا أحد بالداخل،

أنزلتني على الأرضية المتسخة وارتمت بجانبي لتسترد أنفاسها دون أن تمنحني فرصة الانفلات من قبضتها.

هول ما حصل أخرسني فما عدت أدرك ما تريده مني، خاصة وأنني أيقنت أن لا أحد لحق بي وعقلي الصغير لا يستطيع تذكر طريق العودة حتى وإن أفلتتني، التفتت إلي بوجه ضاحك وقالت:

- **لا تخف سأعتني بك، وسأشتري لك أشياء جميلة، ستكون ولدي.**

كلماتها لم تزدني إلا إصرارا على الصراخ، لولا أن أسكتتني بصرخة مدوية جمدت الدم في عروقي قبل أن نكمل سيرنا حتى الوصول إلى منفاي الصغير.

هكذا كانت نقطة البدء في حكايتي أنا البارد جسمه الآن قبل أن يتكوم جسده الصغير بشبر بغرفة مظلمة متطلعا بأركانها باحثا عن تفسير مقنع لما حصل أو عن منفذ لعله يعود من خلاله إلى تلك القرية التي تسكنه كما سكنها يوما.

لأول مرة أُدرك أن هناك ما قد يسمى بالمسافة المحددة بعدما كان الامتداد هو العنوان الأمثل لعالمي الصغير، البحر امتداد والسماء امتداد والشاطئ وقلوب الصغار وبصر الجدة فاطمة...

كل شيء محدد هنا بالغرفة، حيطانها الداكنة والسماء المقننة بحدود النافذة حتى الماء محدد داخل قدر. والأكسجين أيضا... فكلما اخْتَرَقَتْ المكان اختفى وحل محله هواء مختلط برائحة مقززة جمعت بين بقايا أعشاب وبخور وربما أشياء أخرى.

هنا وحده الزمن ممتد إلى ما لا نهاية. غفوت ولا أدري كم استغرق الأمر حتى صحوت وجبيني مغطى بخليط من الأعشاب بالكاد تنفلت عيني من حصارها لتدرك الحقيقة الموجعة التي ربما خلتها للحظة كابوسا قد أستيقظ منه في أية لحظة.

انتفضتُ، ورميت بذلك الشيء الغريب من على وجهي، ضممت ركبتي إلى صدري بعد أن أعدت التكوم في مكاني وعيني لا تغادر تلك المرأة الغريبة التي اقتلعتني من جذوري.

انتفضَت هي الأخرى من مكانها واقتربت مني مهللة، ولأول مرة أدرك ملامحها، وربما ابتسامتها. الشال المكوم فوق الرأس بشكل يكاد يبتلع وشما أخضر قاتما خُط على جبينها ليتم امتداده على ذقنها. أسنان بنية اللون يطل من بينها سن مذهبة وإن اعتلاه بعض السواد في جوانبه كأنه بعض صدأ، عينان جاحظتان وأنف مقعر،

ملامح غريبة شغلتني على استيعاب ما كانت تتمتم به، وإن أدركت بعد ذلك أنها كانت قلقة علي من حمى انتابتني، اقتربت مني محاولة أن تسقيني حليبا لكنني ظللت متوجسا، أصرت كثيرا قبل أن تضعه أمامي على طاولة مستديرة عليها غطاء بلاستيكي كاد يفقد لونه، كان الجوع والعطش قد بدَءا يغزواني ومع ذلك كنت أرفض الانسلاخ عن جلستي لتذوق بعض طعامها، متى كانت أمنا الغولة ترضع ضحاياها حليـبا..؟!

كيف أتذوق هذا السائل الأبيض الذي تسميه حليبا وأنا الذي طالما زاحمت الجدة فاطمة حين تتخذ مجلسها لتحلب البقرات، فتجدها تُدِرُّ لي ضرع البقرة الممتلئ لينطلق بخيط أبيض يستعد فمي لالتقاطه وتذوقه في

مرح طفولي يجعل الزهو باللحظة يتضاعف وأنا المختبئ وراء ظهرها حتى لا تلمحني الحلوب وتضبطني متلبسا وأنا أسرق طعام عجلها الصغير.

كلما ضاق بي الفضاء، أغمضت عيني وسافرت لقريتي أتلصص على ابتسامة الجدة فاطمة، وهي تطعمني من حلوياتها اللذيذة التي يجلبها لها العم إدريس عند سفره للمدينة فتحتفظ بها لتكون هدية فاخرة للصغار. كان لي منها النصيب الأكبر بما أنني كنت الأصغر من بين أفراد العائلة مما جعلني الأقرب إليها دوما، ولأنني كنت المتطوع دائماً لتلبية طلباتها البسيطة.

أمدها بعكازها كلما احتاجته، وأجلب لها بعضا من ثمار التين التي تحب أن تأكل منها مع شربة السميد كل صباح، وأستجمع لها أعواد الدوم الطرية لتصنع منها حبالا طويلة تبيعها في السوق الأسبوعي.

سفر جميل.. عادة ما توقظني منه أمنا الغولة، هكذا كنت أحسها وإن لم أُنادِها بهذا الاسم قط إلا في أعماقي، وهي المرأة التي اقتلعتني من جذوري. توقظني بنحنحتها من حلمي، وتعود بي إلى واقعها المرير لأرقبها وهي تتحرك في الغرفة جيئة وذهابا بجسمها الضخم الذي اعتلته كتلة الثياب بشكل يجعلها تتدحرج في الغرفة الضيقة، وأنا المكوم أمامها المحتل لربوة السؤال عن سبب اختيارها لي دون الباقين، لِمَ أنا بالذات وليس غيري؟!

هل هي الصدفة المحضة، كصياد يرمي شبكته فلا يدري ماذا قد يصيب؟ أسمكة تونة ضخمة تمنحه الشبع متى أعدها للأكل، أم سمكة سردين بحجمها الصغير؟ أو حتى فردة حذاء قديمة أعيت صاحبها فرماها في اليم؟

كيف يا ترى تراني عيون أمنا الغولة؟! كيف يا ترى صيْدها؟ وما المبتغى من خطفي وحرماني من عالمي الصغير؟ فلا يعقل أنها فعلت ما فعلت فقط لأنها تود مني أن أشاركها كأس الحليب ذاك!

ظل السؤال يكبر بداخلي كل يوم، خاصة بعد أن بدأت تمارس طرقها في التقرب مني، وبعدما تعمدت أخذي معها لدكان الحي لتقتني ما يلزمها، ولأكتشف أنا الصغير هذا الفضاء الضيق المنزوي في ركن من طرقة تكاد لا تدرك لها مخرجا.

كانت عيناي تتفقدان المكان بخجل مربك، ولم أدرك أنها كانت ترقبني إلا بعدما لمحت تسمري أمام الحلوى التي ما كنت أجدها إلا عند الجدة فاطمة، الحلوى التي كانت تؤثرني بالنصيب الأكبر منها دون الآخرين.

لم تكن هذه الكريات الملونة هي ما يثيرني، ولكني أدركت بعقلي الصغير حينها واكتشفت المصدر الذي كان العم إدريس يجلبها منه، فعقلي الصغير لم يتصور أنها حلوى تستقدم بأطنان من حيث لا أدري لتوزع على كل الدكاكين.

لاحظت أمنا الغولة تركيز بصري على الحلوى الملونة، امتدت يدها بحفنة منها لكن لساني الصغير كان يردد جملة واحدة:

- **أريد جدتي فاطمة**

بقدرة قادر أقنعتني أنها سفيرة الجدة وأنني هنا ضيف لفترة زمنية مؤقتة وكلما استزدت من تلك الحلوى وكنت مطيعا إلا واختصرت المسافة الزمنية للعودة لعالمي المفقود.

صبي صغير آمن بكذبة حيكت بدهاء الكبار فرسمت أحلاما انكسرت مع مرور الوقت حين طرحت فرضية تواطؤٍ بين هاتين السيدتين والحلوى المغرية.

أحلامي الصغيرة تبخرت حين تحولت إلى الحامل الرسمي لأغراض أمنا الغولة والتي لا تسعفها أقدامها الغليظة من حمل أثقال أخرى وكنت الفاتح بأمرها للباب الخارجي لكل طارق، والمورد المعتمد لبيتها بالماء الصالح للشرب وغير الشرب من الساقية المجاورة ولأكتشف أن جسدي الصغير قد تحول إلى دابة تَمتهن كل ما يُمتهن ومالا يمتهن في سبيل تيسير العيش لهذا المخلوق المتسلط.

3

مدينة جاحدة

لا يدري لماذا ينتابه دائماً الإحساس بالغربة كلما اخترق شوارع مدينته مع أنه يعشقها ويعتبر الابتعاد عنها خيانة؟! لذا فهو لم يغادرها قط إلا للسفر إلى البادية المجاورة التي لا تبتعد إلا بكيلومترات قليلة في اتجاه الشمال حيث قرية والده، ولم يكن ذهابه إليها إلا نادرا برفقة أمه حين كان صغيرا وبعد وفاة جده بقليل، فهو مهووس بمدينته رغم الجحود الذي لقيه منها ومن أهلها. عاشق هو لهذه القلعة كما يسميها. عشق من طرف واحد. عاشق فاشل، لم يعرف قط كيف يعبر لمعشوقته بشغفه بها. كان يعاتبها في دواخله لأنه كان يتمنى لو أنها تدرك ذلك وهو الذي يظل الليالي يحرسها من على سقيفته ليلا، ومع ذلك تتحرك مشاعره اتجاهها ويكون سعيدا وهو يخترق شوارعها حتى وإن عاملته وكأنه غريب. أَزِقة مدينته تمنحه نوعا غريبا من الدفء. كان يحس أن مدينته تسكنه بكل تفاصيلها. مدينته غجرية يراقصها ليلا، ويغزل أشعاره على أعتابها كعاشق مجنون. وحدها تستطيع أن تقبله كما هو عاريا إلا من انتمائه لها. أحيانا يحسها لا تراه إلا قطا من قططها المدللة فيتمدد على أرصفتها ويغفو على

سقالتها، يتبول على سورها، يحسها تقبله بعفويته كما يعشق دفءها وتكاسلها.

مدينته لم تمنحه إلا التيه الذي تهبه لمن مثله لا يمتلك عنها بعدا، الشرود التام، سواء إن اخترق دروبها و جلس القرفصاء قرب بواباتها وظل يرقب حركة المارين دون كلل ولا ملل، أو حين يطل من شرفة بيته على الممر الطويل المؤدي إلى المقبرتين المنسيتين حيث يرصد منه الموت دائما، ويحسه ملتصقا بالحياة ومتربصا بها، كل هذا يغرقه في عمق السؤال عن هذه الثنائية المتوحدة، وكثيرا ما يشعر بالضياع وأن الحقيقة الوحيدة الثابتة هي الموت. لكن السؤال المحير دوما هو: ما الحدود الفاصلة بينهما؟ وهو مدرك تماما أن الموت متلبس بكل ما يحيط به، صمته موت، عزلته المختارة موت، غربته والمدينة التي ترفض أن تحتضنه موت، فكيف له أن يجيب على السؤال حول الحدود بين الحياة و الموت بداخله؟ ما سبيله ليتحرر من كل هذه الحيرة، سؤال جريء يُلبسه إحساسا فظيعا؛ صقيع يتلبسه من أطرافه ويجتاح كل جسده

ليس هناك أفضل منه ليتكلم عن ذلك ولعله عايش الأموات أكثر من معايشته للأحياء، وتألم منهم ومعهم بعدد سنوات عمره التي تقارب الستين، مع أنه الآن لم يعد يهتم بالألم الذي يكابده. فقمة الألم حين تحس ألا جدوى من أي شيء، لا جدوى حتى من الموت نفسه، كما يردد دائما.

فقط، هو القلق من رائحة الموت المنبعثة من كل تفاصيله اليومية، رائحة تربكه فهو يراها_ديدانا متعفنة تسري بكل أوصاله، وكثيرا ما تساءل:

- **لِم يوهموننا أن الموت يأتي بعد أن تضع الحياة نقطة نهايتها، فهل الموت نقيض للحياة أم يتماهى معها؟ وهل نموت مرة واحدة؟ أم الموت يرافقنا منذ أول صرخة لنا ومع أول جرعة هواء تخترق رئتينا، أو لعلها تكون قبل ذلك ونحن نطفة في أرحام أمهاتنا؟ وهل الموت هو نقطة النهاية؟؟**

كلما تملكه هذا الإحساس إلا وغادر بيته مخترقا العالم الخارجي هاربا من هواجسه حتى وإن كان الهروب نحو عالم لم يستطع حتى الآن أن يستوعبه بالشكل الذي يجب، متأبطا حقيبته المتهرئة وقد جمع بها بعض مسوداته التي جعل منها بديلا عن صداقات لم يجد بها واقعه، كانت أمه هي صديقته الوحيدة وبعد أن اختطفها الموت من بين أحضانه قرر ألا يصاحب إلا شخصياته المختلَقة، وبالرغم من ذلك كان إحساس الوحدة لا يفارقه، كثيرا ما كان يسخر من نفسه وهو الذي تخلى عن حريته وقرر أن يسجن نفسه محاولا إتمام كتابة رواية حول الإشكالية التي تسكنه.

رواية لا أحد ينتظرها وهو الذي خذل صوت المبدع بداخله منذ سنوات، فكثيرا ما كان يغمد سيف القمع في شخصياته الورقية. ربما لأنه يحسها أضعف من أن تواجه العالم معه، أو لعله فعل ذلك بما أنه لا أحد يستسيغ ما يكتب، وحتى الذين كانوا يصفقون لحروفه ويهللون لها، ما كان الأمر لديهم إلا ابتغاء تأويلها لصالح هذا الجانب أو ذاك. لكنه اليوم وإن قرر العودة للكتابة فلأنها فضفضة تريحه من ذلك الإحساس المقيت وإن كانت لا تجيب على السؤال الذي يحيره.

مؤلم جدا ما يحسه الآن وقد عبرت مخيلته كل تلك الكتابات التي نسجها طول السنوات الماضية، ثم بكبسة حذف ألغاها، كأنما لم تكن أبدا

حتى التي استطاع أن يرسلها إلى المطبعة، يجد نفسه قد لاحقها بأمر صارم واعتذار للناشر حتى لا تطبع. رواياته، أشعاره البكر التي تأبطها فرحا وحملها بين أضلعه لسنين، خواطره وقصصه التي حمَّلها بعضا من نواميس الشباب وهذيان المراهقة حين يعتلي أشرعة الحلم.

هل يستقيل الكاتب من حروفه؟ أيمكن الاستقالة من الحروف التي سكنتنا زمنا والانسحاب بعيدا؟

- **نص رائع حاز على إعجاب الجميع.**
- **كيف ذلك وأي نص؟**
- **قصة ابن البلد، لقد راقتني ونشرتها بالجريدة. جميل هذا الانتساب للمكان والغيرة عليه. أقصوصة تناشد الحرية في ظل الوضع الراهن.**
- **من طلب منك نشرها؟ أي حرية وأي وضع؟**
- **أأنت خائف؟**

لم يجب ولو فعل لأكد ذلك، فهو لا يخفي جبنه في مثل هذه الأمور، اكتفى بالانسحاب، لم يسأله حتى بأي اسم وقعها، فلا شك أنه ذيلها باسم بلقايد ولاشك أنها الآن تُقلب في مكان ما وسيرته أيضا.

لن يكون أول من يمتطي صهوة الهروب من عالم ساكن جاحد بالحرف كافر بلغة الأدب - كما يردد دائماً

- **ربما هي إشكالية زمن اختلق في داخلنا ثمرة الإبداع ثم تركنا وحدنا في عالم يسهل علينا فيه اختلاق الشخوص دون أن يعلمنا ضوابط التعامل معها فنجد أنفسنا نعيش فوضى غير محسومة تحسب علينا لا لنا...**

متناقضا كان هو دائماً مع ذاته المبدعة. يتملص منها حينا، ويمزق كل ما يربطه بها، وفي نفس الوقت يعلن زهوه مع كل كلمة نقد في حقها وكل كلمة تعتلي صفحات الجرائد وهي تتكلم عن الكاتب الجريء.

لم يكن يتوانى في أن يعبر عن مجتمعه كما يراه، أو كما يحسه، وما قد يسميه الآخر جرأة هو عنده لا يتعدى كونه نبتة طفيلية تربت بمعزل عن الجميع، أدرك عريه وعري محيطه دون أن تتدخل الأعراف في رسم حدوده، فلا أحد يلوم من تربى في الغابة إن تمشى عاريا مادام لم يتعرف على نواميس التجمعات البشرية وطقوسها. هو هكذا يرى الأمور، فعزلته عن العالم جعلته لا يستحيي من أن يعبر عن مجتمعه بعفوية وأن يرسمه حسب ما تجود به نافذته العالية التي لا يدري إن كان هو الذي اختارها لعلوها، أم هي التي اختارته لغربته واستغراب الناس له مما جعلته يرى العالم حوله بشكل مختلف

حاول أن يقترب من الناس، لكنهم نبذوه ولم يجد أمامه إلا هذه الطبقة المثقفة التي تصفق لحروفه والتي كثيرا ما يحسها غريبة هي الأخرى، فمعها فقط يستطيع أن يحقق تواجده الوهمي ولو قليلا.

كثيرا ما كان يعد نفسه بالمجد الخالد وهو فوق المنصة يقرأ بعض أشعاره ويلقي خطبه الرنانة، فتمنحه التصفيقات بالقاعة القدرة على السباحة عاليا وينسى كونه كاتبا عاجزا عن التعايش مع واقعه. محاولا في كل مرة أن يسدل ستائر الظلام حتى لا ينفرج الثقب الذي يغازل أصابع قدميه وصوت مصارينه التي تزقزق جوعا وهو يقف مستجيبا لطالبي الصور بقربه بِزُهُو المنتصر، حتى إذا ما انفض الحفل واعتلى كل واحد منهم سيارته، بقي هو على رصيف الحلم يتفقد جيبه الفارغ حتما إلا من البطاقات التي لن يفيده أصحابها بأي شيء،

يعود أدراجه مشيا على الأقدام محاولا إسكات الصوت الخفي بداخله كلما حاول التعقيب متباهيا بكلماتهم في حقه، تصفيقهم الذي طال أكثر هذه المرة، فيخجل كل مرة من تذكيره بالجوع المختبئ في غرفته والذي قد يعزف موسيقاه طيلة الليل حتى يحرمه نعيم الشبع نوما.

لكنه الآن صار مقتنعا تماما أننا نحتاج كثيرا لموانع إبداع، لتحديد نسل الحرف، وإلا ازدحم عالمنا بأناس لا يراهم غيرنا.

أناس يقاسموننا كل شيء ويسترقون منا حتى فرحنا بأمورنا الصغيرة، ولا نستطيع محاسبتهم أو متابعتهم بجرائمهم، وقد تحسب علينا أخطاؤهم وتجاوزاتهم فنعاقب بدلا عنهم وننعت بصفاتهم ولا أحد يمكنه أن ينصفنا.

تماما كما حصل معه هو حينما تعرت بطلته على قارعة نص من نصوصه، فاتهمه مجتمعه بالفسق وخدش الحياء، وحينما صرخ ذاك المتمرد في إحدى قصصه على عصره بأفكار ثورية، اتهم هو بالمس بقداسة الوطن، مع أن وطن شخصيته كـان بحجم صفحات الأقصوصة وبعمر حروفها.

أدرك أنه لم يكن من السهل أن يتحول من كاتب حالم بعالم مثالي إلى مطارد محاكم بتهمة المساس بالمقدسات، مع أنه كان دائماً يتهرب من التصنيفات التي حاول الكل إلصاقها به، ولطالما صرح أنه يحاول أن يكون الكاتب الإنسان وكفى.

ومع ذلك يوهم نفسه أن هذا الكتاب الذي يستجمع فيه مسوداته الآن قد يكون سابقة في عالم الكتابة. رواية أدبية بمحور موضوعي صرف،

بعيدا عن الأفكار المسبقة والتأويلات المربكة. راودته الفكرة بعد شهور من مغادرته لقسم الشرطة وسكنته لسنين

- **أنت سجين رأي !!! بالقايد سجين رأي أيها الرفاق، عبث**

هكذا استقبله سجين بالزنزانة التي وضع فيها بمركز الشرطة من أجل التحقيق معه قبل أن يضج المكان بالضحك، لم يكن يستبين من الغرفة إلا الأصوات حتى إنه لم يدرك عددها لخوفه وارتباكه، ولأن عينيه ما زالتا تحتفظان ببعض ضوء النهار خارج المكان، قضى هناك شهرا كاملا ما بين تحقيق مستمر بمكتب الضابط وسخريةِ واستهزاءِ زملائه الموضوعين رهن الاعتقال الاحتياطي.

- **من قال لكم إنني سجين رأي، أنا هنا لأنه ثمة خطأ ما**

أحس أنه أخطا التعبير وأن الرأي الذي يتكلم عنه هو ليس ما يقصدونه هم، ففي قرارة نفسه يقر بالجبن الذي يجعله غير قادر عن الدفاع عن نفسه وعن أفكاره

- **أكيد هناك خطأ، يجب أن يكون هناك خطأ. وأنا، لو يقبلون بشهادتي لشهدت لصالحك. إبليس نفسه، قد نقبل منه أن يكون سجين رأي في هذا البلد لكن أنت لا، فكريات الخيانة في دمك أكثر من الكريات الحمراء،**

تعالت القهقهات بالغرفة المظلمة، لم يتم تحديد نوعية الخطأ فحينما كتب ذلك النص القصصي الذي كان مجرد مسودة، لم يتصور أن تلتقطه يد ذلك الإعلامي فيتولى نشره بعد ذلك ليجد نفسه بين يدي الشرطة مع أنه يراه نصا عاديا، يروي قصة شخص يبحث عن واقع معيشي أفضل. كم كان يتمنى لو يمتلك الجرأة ليصرخ فيهم جميعا أنه حين يكتب إنما يحاول

فقط أن يرسم الشخوص التي يتمنى أن يكونها، كم تمنى لو يتمرد على الجبن الذي يتلبس به، وأن يكون في مستوى الدفاع عن شخوصه.

- **كم صفحة سيكون هذا النص؟**
- **هو مجرد فكرة سيدي**
- **طبعا قبل أن تتطور لتصير كتابا عن الظلم والعدل وعن وسائل القمع وماذا أيضا؟**
- **أقصد فكرة خطرت لي ودونتها ولم أكن أفكر في نشرها أبدا**

توالت اللكمات على وجهه والركلات على كل أنحاء جسده وسط سيل جارف من السب والشتم لم يتبين منه إلا جملة واحدة

- **الخائن ابن الخائن**

نفس الجملة ترددت في الزنزانة أيضا، وكأنه لم يكتب للسلطة وسجناء الرأي أن يتفقوا إلا على نعته بالخيانة وهو أمامهم مكبل بتاريخ جده الأسود ومتلبس بأحرف قصة لم تتجاوز صفحة واحدة.

توالت جلسات الاستنطاق دون أن يستوعب جيدا ما المطلوب منه، كم تمنى لو يعترف لعله يتحرر من تلك الساعات الطوال تحت الضوء الكاشف والأسئلة المتوالية، لكنه لا يدري بمَ عليه أن يعترف؟، كانت كل كلمة ينطق بها تجد لها تأويلا على لسان مسائليه، لا يدري كم استمر ذلك ولا يدري حتى ما هي الكلمة السحرية التي نطق بها! حتى تعمد بعد ذلك الضابط أن يتركه وحيدا في غرفة لا تتجاوز مساحتها المترين بلا فراش ولا مبولة ولا أي شيء، غرفة داكنة.

عندما قذفه فيها وأغلق الباب بإحكام، كانت جراحه ما زالت تنزف، رائحة الدم جعلته يتقيأ مصارينه بأرض الغرفة وهو يصرخ بأعلى صوته

من الألم والخوف، الخطوط على الحائط يتخيلها بعض ألسن وآذان تتلوى، أغمض عينيه فتحول الصمت لهمهمات وأنين.

- -من هناك؟ هل من أحد؟

اقترب من الباب، أرهف السمع، كانت الأصوات تتوقف كلما فتح عينيه، كان الخيار صعبا ما بين أن يفتح عينيه أو أن يغلقهما، ما بين الأنين الذي يخترق مسامعه والألسن التي تتلوى وتقطر دما أمامه.

رائحة الموت التي تزكم أنفاسه أفقدته القدرة على المقاومة. تكوم في ركن مفترشا الأرض، غير آبه ببقايا القيء المتناثر في المكان، ولا الحشرات التي اتخذته وجبة لها.

أغمض عينيه محاولا استحضار طيف أمه، يتخيلها شامخة في مثل هذه المواقف، وحدها زينب الطفلة التي رغم صغر سنها كانت تستطيع أن تحتضنه إليها وأن تحمله الى عالم غرائبي ينسيه الألم ولو بعد حين.

- **لم تكن المسافة بين عمري وعمرك أمي بالكبيرة ومع ذلك أحس أنك تعلمين الكثير، فأنا لم أتسلح بالقصص التي كنت ترويها لي قبل أن أغفو كل ليلة. كنت سريع النوم بعد أول جملة، بينما كنت أنت تستمرين في حكيك إلى أن يجف ريقك. لم أسمع كل الحكايات التي كنت ترويها لي، لكنني كنت أحسها من نظرات عينيك كل صباح، وكنت أسأل نفسي: لِم تهتمين بالحكي كثيرا؟ ومن علمك هذه القدرة على السرد وأنت التي لم تتخطيْ عتبة البيت أبدا؟**

فقط، وبعد رحيلك أدركت أنك كنت تحملين في داخلك عالما كاملا. أتراك كنت مثقلة بعالم أبَى إلا أن يجعل منك أما قبل أن تودعي

ضفائرك؟ أو لأنك كنت تعلمين أن وقت الحكي قصير جدا وأنك ستترجلين عن هذا العالم بسرعة، وحتى قبل أن تمنحيني سرك الكبير؟ وكيف تقبلت موت كل من حولك تباعا دون أن تفقدي روحك الطفولية؟! أتراهم أبلغوك قبل رحيلهم وأنت مستعدة للأمر؟ أم فقط لأنك اختبرت الخوف والألم منذ حداثة سنك وأدركت قبلي بكثير أن الموت هو الحقيقة الوحيدة في كل ما يحصل معنا؟ فقد زُوجت وأنت صغيرة وتَرملتِ أيضاً وأنت صغيرة، ورُزقت بي وأنت لم تدركي بعد معنى الأمومة، فكنت صغيرك وزوجك وأخاك وحبيبك.

كانت زينب تقاسمه كل شيء. كان صندوق أسرارها. أرضعته مخاوفها وكل ما يؤرقها مع كل رشفة حليب من صدرها، ثم علمته المشي على وقع حكاياتها حتى يدرك أن للحكي سلطة تستطيع أن تحررنا من آلامنا ومن الخوف المتربص بنا.

أحيانا يحس أنها لم تكن بالقوة التي كانت تتظاهر بها، ولكنها كانت فزاعة وسط حقل الألغام التي ولدت فيه،كانت تمتلك قدرة هائلة في أن تجعله يتحرر من آلامه وكان لا يهنأ بالنوم إلا بعد أن يسمع نبرة صوتها، فهي وحدها تستطيع أن تخترق حيطان السجن والحراس وأن تقبل أن تجالسه في معتقله الانفرادي وأن تمسح على جبينه عرق المآسي التي تلبست به، تمد يدها لتلملم رجولته المنسكبة من على خديه وهو يروي لها ما أصابه.

- **الرجال لا يبكون**

بحنان تقترب منه، يتوسد ركبتيها وهي تسرد المآسي الأكبر التي مرا بها وصمدا رغم ذلك، أمامها وحدها يستطيع أن يتعرى لترى ضعفه.

تخيط تاريخ العائلة الممزق من هول ما ينطوي عليه. تحتضنه وتعيده لعالم يفتقده كثيرا. تهدهده وتغني:

نيني يا مومو

حتى يطيب عشانا

والا ما طاب عشانا

يطيب عشا جيرانا

حاول النوم لكنه لم يستطع، مع أنه لم يكن يسعى لغفوة بقدر إحساسه أن هذه الكلمات قد تسعفه قليلا ليحافظ على بعض التوازن حتى وإن كان من خلال أغنية طفولية ساذجة ترسم له بيتا ووجبة عائلية وجيرانا يعتمد عليهم في وقت الشدة.

لا يدري كم دام وضعه هذا، ولا عدد الأيام وهو على هذه الحال قبل أن يطلق سراحه لتظل الأشباح لشهور تمشي وراءه، تشيعه حتى عتبة بيته ليتولى شبح جده المهمة داخل البيت.

تجربة لا يدري كم أخذت من عمره، لكنها ظلت عالقة بفكره، يتذكرها دوما كلما عبر ت فكره تلك الكتابات التي تخلص منها تباعا و طيلة السنوات الماضية.

مسودة الذاكـرة

وأنا في ضيافة أمنا الغولة احتاجت قدمي الصغيرة لأيام قبل أن تخطوَ خارج الغرفة الضيقة، كنت وحدي في لحظات مستقطعة من العمل الإجباري وتحت المراقبة المشددة مع أنني لم أكن أبتعد عن باب الغرفة، فلصوتها سلطة القيود، حتى إنه ليكفي أن تصرخ بي لأجدني متسمرا في مكاني.

أحسها تمتلك عيونا في كل أنحاء جسمها، عيونا تكاد تعري فكري الصغير وتفضح مخططاتي في الخطو خارج المكان أو التطاول على قطعة حلوى، سلطة لا تتقنها إلا معي، حيث تحولت أنا أيضاً لعين تراقب جزءا من بهو البيت الذي لا يدركه بصرها، وهي الممدة بعد كل وجبة دسمة وبعد إنهاك ملحوظ من إصدار الأوامر لجسدي الصغير ولأصطدم بوجوه غريبة شاحبة تكاد لا تدرك ملامحها، حتى أصواتهم غريبة، أو لنقل همهمتهم، فما سمعت لهم صوتا إلا فيما ندر، بشر مختلفون عن البشر هناك بقريتي الصغيرة، لباسهم داكن. يقضون يومهم في رص أشياء لم أدرك قط أهميتها في بهو البيت المشترك.

كان يلزمني وقت طويل لأدرك أنهم يعيشون على صناديق القمامة لتجميع القطع المعدنية وأطراف الخشب وبعض قطع الزجاج من أجل

بيعها في سوق الخردة أو إعادة تدويرها من أجل منحها عمرا إضافيا بعدما أقر أصحابها الأولون بانتهاء صلاحيتها، حياة جديدة لم تكن بالمتوقعة أبدا.

كانوا ثلاثة والرابع لا أراه إلا نادرا، ثلاثة رجال وامرأة، هذه الأخيرة التي لم تكن تشتغل في جمع النفايات فيما أعتقد، فما لمحتها إلا وهي تحمل حزمة على ظهرها حتى لكأنك تخالها تحمل رضيعا كما خيل لي أول الأمر، وقبل أن تجذبني أمنا الغولة يوما بعدما اكتشفت إصراري على الإنصات على غرفتها لعلي أسمع صوت الصغير أو حتى ألمحه ولو من ثقب في الباب، ولتخبرني أن ما تحزمه على ظهرها ليس إلا خرقا بالية تحتاجها في عملها الذي أدركته فيما بعد.

- **الخرق المحزومة على ظهرها كانت وسيلتها للتسول، توهم المارة أنه رضيعها المريض، فقد لمحتها مرة تجلس قرب مسجد تبكي يُتم الصغير وضيق الحال.**

هكذا أقنعتني مختطفتي التي نجحت في أن تمنعني من الاقتراب منها، وما كنت لأذعن احتراما لرغبتها ولكن خوفا من الأصابع التي طالما رسمت زرقتها على جسدي الصغير كلما تجرأت على التلصص على تلك المرأة دون غيرها.

أما الآخرين فكان يلزمني وقت طويل لأفهم ما يقومون به من خلال حواري مع با محمد، الرجل الأعرج الذي عادة ما يجود علي بلعبة مكسرة بعد أن تحررت قدماي من عتبة الغرفة وصرت أقترب منه أكثر، في البداية كان حوارنا صمتا، أنا الممتنع عن النطق خوفا، وهو الكهل المقل كلاما ربما لأنه لا جدوى من الكلام في عالمه ومع ذلك كان الأقرب إلي، في عيوننا انكسار متشابه، أجلس على عتبة الغرفة أتتبع حركاته وهو يرتب ما

جادت به حاويات النفاية. يبتسم لي الكهل فتتحرر قدماي وأقترب منه أكثر. رجل أشيب الشعر، ليس عن كبر وإنما من عوامل الحياة، وزاده قهر الزمان بؤسا، تكالب هو ولفحات الشمس الحارقة ليجعلا من وجهه صفحة غامقة امتزج فيها الحزن والتعب وخطوط بيضاء تنم عن اللون الأصلي لبشرته، وصغير قيده الخوف وأقعده الجبن فخارت قـــــواه..

كان يلزمني وقتٌ أطول لأدرك أن لا روابط عائلية تربط بينهم فالبيت هو ملك لأمنا الغولة وتكتري غرفه لهؤلاء الناس البسطاء. فهذا البيت يشبه المنفى ولا أحد تربطه صلة قرابة بأحد ولا حتى صلة السلام والكلام،

كل في ملكوته الخاص، منشغل بتجميع تفاصيل يومه وملتقطٌ لقوته ولو من مخلفات الآخرين، حقيقة مرة أدركتها فيما بعد، بعد حواري المتقطع مع العم محمد ردا على أسئلتي الطفولية.

أنا أيضاً لم تكن لي آنذاك مفاهيم محددة عن العائلة، ففي قريتي الصغيرة كانت كل الأمهات أمي وكل البيوت براحي، ووجبتي على كل طاولة أجدها أمامي. وحده النوم كانت له طقوس معينة هناك، حيث ينغلق الباب الذي ما عرفت له قفلا على عدد يسير من تلك الوجوه التي تقاسمني يومي بذاك الفضاء الممتد، مع أن الحضن الوحيد الذي كنت لا أستسلم للنوم إلا في حجره هو حضن الجدة فاطمة.

بينما هنا الأقفال أكثر من الأبواب، مع أن كل جحر لا يضم إلا فردا واحدا، غربة موحشة وانقطاع أمان يكشف لي أكثر حين فاحت رائحة الموت من إحدى الغرف، كان هذا أول لقاء لي مع الموت، ولأول مرة أدرك رائحته الكريهة التي ملأت المكان، صراحة عقلي الصغير لم يكن يدرك ما يحصل هنا ولا أذكر من الأمر إلا الجلبة التي أربكت كل من في البيت، والصراخ وحالة الفزع التي انتابت أمنا الغولة وهي تكرر كلمة بوليس

ويداها تتنقلان بين لطم وجنتيها حينا وفخذيها في تسارع غريب أربكني جدا فما وجدتني إلا وأنا أعدو في الشوارع، وإن كنت لا أذكر كم استغرق اختراقي لحائط الأرجل المتكدسة أمام الباب من أجل معرفة ما يحصل بالداخل، ولا حتى كيف توصلت إلى مغادرة الحي الذي ما كنت أعرف أن له مخرجا، ولا ما كان إحساسي لحظتها، ولا حتى ممَّا أهرب؟ أمن سجن أمنا الغولة الذي قضيت فيه أكثر سنة من عمري؟ أم من الصراخ المتعالي؟ أم من الموت الذي أتعرف عليه لأول مرة؟ وهل إن كان ما أقوم به هروبا؟ لا يهم ما دام كل ما حصل قد أوصلني للشارع، للعالم الفسيح، لضوء الشمس، للهواء..

حزينا حتى الموت، كنت وأنا أفترش الطريق العام بعد أن نامت المدينة وقررت في لحظة صمت أن تتناسى جسد طفل أنهكه الهروب من قدره وسرقه الجوع من بوابة الحلم وأفقده بوصلة الوصول لتلك القرية التي كانت دوما على مرمى مخيلته، طفلا صغيرا كنت أحتضن أقدامي المتعبة وأغمض عيني حتى أتحرر من أشباح يختلقها الظلام عنوة ليحاصرني وقد تضخمتْ بصراخ أمنا الغولة كلما غفوت فأصحو مذعورا، أتلمس الضوء المنبعث من النوافذ، أطرق بابا فتنهرني الأصوات الغليظة، أشتكي جوعي على أبواب المقاهي فتنفر مني وتقذفني الأحذية، أتكوم على فراش كرتوني فتنهرني أياد صغيرة ضائعة مثلي، يمر سكير يعربد يحمل قنينته مترنحا، يخيفني منظره فأبتعد عن المكان إلى شارع آخر لا يقل عنفا عما سبق، لم يعد لي وقت للحلم ببلدتي النائية ولا عاد صوت أمنا الغولة يزورني، ليرعبني فهناك أمورٌ أخرى أهم تشغلني، أمور جعلتني أكبر دون أن أدرك كيف ومتى، فحاويات القمامة حولتني لمستثمر صغير يلملم القنينات الزجاجية لبيعها أو يقايضها ببعض الخبز وبعض الأمان.

وحدي أعاني من كدمات تركها هذا الزمن الغادر على طفولتي، فكيف لغيري أن يحس بما أحسست به يومها، وهو الذي لم يعش حياة التشرد كما عشتها، ولا توسد الأرصفة، ولا تسللت الأيادي لتسرق منه ما لا يدرك أسُرقَ منه بعد ذلك أو لا! خاصة وأن الأيادي_التي عبثت بحياته لا حصر لها ولا عدد..

لا أحد يستطيع أن يستوطنك من الداخل ليحس بما تحس : حين كنت في السادسة من عمرك، وقد أنهكك التعب والجوع وقلة النوم، لتصحو وأنت في حضن لا تدري متى خلعت عنك طفولتك وجعلك تتقزز من نفسك، فيتركك عاريا محاولا الهروب من جسدك، حتى إذا ما فشلت احتضنت أنت تلك العذابات التي لن تتحرر منها أبدا، فتكبر ويظل الطفل بداخلك يصرخ ولا يسمعه أحد غيرك.

فبالرغم أنك قد كبرت بما يكفي وأنْ لا أحد يعلم الآن أو لا يذكر ما حصل يومها، إلا أنك تحس بالأعين وهي تظل ترقبك عن بعد وأنت تحاول إخفاء الطفل الذي يصرخ بداخلك، فلا تجد إلا عيونهم التي تتألم من أجلك وتدعو الله أن يأخذ بيدك، وهم يجزمون في قرارة أنفسهم أنك مجنون أو مجذوب..فتجد نفسك محاصرا بين عالمك الطفولي المغتصب وبين عالم خارجي لا يدرك ولن يدرك ما عانيته قط..

لا أحد يستسيغ أن كل من حولك يدفعك للجنون لعلك تتحرر من ذلك الانشطار الذي تعيشه، فتكبر ويظل الطفل يصرخ بداخلك

يستفسرون عن سبب انكسارك ولم يدركوا أن وحدها الحقيقة التي لو استطاعوا اكتشافها تستطيع أن تحررك من آلامك وأن تمنح جسدك المنهك راحته الأبدية بقبر خارج سور ذاكرتهم، متى يدركون أن قضيتك كلها رهينة بصراخ طفل بداخلك، طفل رفض أن يغادرك.

4

حائط مبكى

تساءل كثيرا لِمَ يكتب؟ أليس من السهل أن يوقف نزيف الحروف درءا لكل هذه' الوساوس والهواجس التي تحاصره، أليس حريا به أن يُصمت الأفكار بداخله بدلا من أن يحترف التمزيق بعد كل إرهاصة قلم.

أنستطيع أن نكتب ونحن مكبلين بالخوف؟ مع العلم أنه لم يتجرأ على التدوين أول مرة إلا للسبب ذاته حين كانت أمه زينب في كل مرة تراه يخطط بعض خربشاته تغبطه، وتدعي أنها لو كانت تعرف الكتابة لدونت كل ما يحصل معها في البيت الكبير.

- **عم ستكتبين؟**
- **سأكتب عن بنت القايد التي يحسدها الجميع ويتمنون لو يكونون مكانها وهي السجينة بقصر من رخام لا يدخله إلا الهواء، أكتب أمورا لا استطيع أن أخبر بها أحدا**
- **حتى أنا؟**
- **أنت عيني التي تخرج كل صباح للذهاب للمدرسة، وأذني التي تستمع لأناشيد الصباح، وأنفي الذي يشتم رائحة البحر، ويدي التي تتلمس طريقها نحو عالم أجمل.**

يعاوده كثيرا حواره مع أمه حين كان مراهقا فيجدها قد تجسدت بالسقيفة، تنثر الفضاء بحكايات شتى وهي تعيد ترتيب المكان برشاقتها المعهودة

- **من قال إنك لم تمارسي فعل الكتابة وقد نثرت على حائط البيت مرثيات تروي قصص من فُقدوا؟! كان الفضاء كله حائط مبكى ترويين عليه أساطير من وجدوا في المكان الخطأ فدفعوا حياتهم ثمن خطئهم هذا. كنت تسردين الحكايات فيلتقطها عقلي الصغير فلا يميز بين الواقعي منها ولا الخيالي، مكبلة بالخوف من أن يطالك نفس المصير، من قال يا أمي إن الكتابة تكون فقط بالقلم؟ هناك كتابة لا تنسى, الكتابة بالدم. وأنت استنفذت دم كل من طالهم سيف الغدر داخل سور بيتك، فعشت التناقض التام بين الرأفة بمن اغتُصبت حياتهم، وعدم قدرتك على كره القاتل ولا الحقد عليه وحدها الحيطان سمعت أنينك ووحدها ذاكرتي استطاعت أن تدرك ما كنت تعانيه في صمت."**

كم تمنى لو كان يمتلك شجاعتها في السرد، وأن يعبر عن كل ما يجتاحه، لكن بعض الكتابات لا تتحملها الحروف. يحتاج أن يسرد كل ما يحصل معه، أو على الأقل أن يرسم حياة أخرى كان يحلم بها وهو المنبوذ من الجميع، فلا يجد غير الشخصيات التي يختلقها ليتعايش معها في عالمها حتى وإن كانت بين دفتي الحياة والموت.

سار عبر الأزقة التي لَمْ تتغير كثيرا رغم إحساسه أنها ازدادت ضيقا واتساخا. غادر البيت الذي يسكنه والمزروع في حارة ضيقة بمخرجيْن، كانا خِيارَيْهِ الوحيدين، كان الأول يغرقه في المدينة مرورا بالملاح وهو الاسم

الذي يطلق على الحي اليهودي بالمدن العتيقة، وكان الثاني المؤدي إلى خارج السور مرورا بالمقبرتين المنسيتين.

غادر هذه المرة عبر حارة اليهود القديمة التي انهارت جل بيوتها، وما تزال أخرى آيلة للسقوط تأوي بعض الأسر الفقيرة بعدما غادرها أهلها الأولون، فترى النور ينبعث من بعض نوافذها خجلا، وهي المتصدعة لقدمها وغياب العناية بها.

تبصر الصغار يتسلقون الدرج الشبه متهدم باحترافية غريبة وشجاعة خانته حين جاء في زمن مضى ليزور أحد أصدقائه، فوجد نفسه متسمرا ما بين السماء والأرض، لا يقوى حتى على الصراخ، فلم يجد إلا هؤلاء الصبية يشفقون عليه ويرشدونه بتحايلهم على الشقوق والتصدعات، حتى وصل إلى أرضية البيت غير آبه ببرك الصرف الصحي التي تحيط به، ولا بالرائحة المقززة التي انبعثت منه وهو يلملم خوفه ويغادر الزقاق.

ما زال إلى حدود اللحظة يتذكر ما حصل يومها، كلما عبر ذلك الطريق المختصر في اتجاه درب الملاح القديم، متتبعا الطريق الضيقة المحاذية للسور، تاركا ساحة المنزه وراءه ومتجها إلى مبنى السقالة الشامخ.

يتذكر كل تلك التفاصيل كما يتذكر صديقه الوحيد الذي شهد فترات مراهقته وهما يتسكعان بالبحر المهجور. كان أول من تخطى معه عتبة الأقداح المحرمة والسيجارة الأولى. كانا يتعمدان قطع شوارع المدينة الملتوية جريا، صديقه الذي مات غدرا في مشاجرة لم يستطع استيعاب أسبابها والتي أُسِرَّ له فيما بعد أنها تصفية حسابات سياسية، لم يتضح الأمر مع أن مدينته كانت وما زالت بعيدة عن كل تلك الأمور التي تجعل الصراع والتطاحن أمرا واردا، ولم يكن يعرف أيضاً عن صديقه أنه منتمٍ للشيوعيين أنداك كما بلغه، فرغم مجونه واستهانته بمبادئ مجتمعه واستهتاره، إلا أنه ما كان يرى في ذلك إلا تمردا طبيعيا لشاب في سنه رافضا

لكل الأمور التي تجعله تابعا لمجتمع يرغمه على التشبه به دون أن يمنحه حق التعبير عن رغباته.

عندما مات صديقه كان هو سجين حزنه على فقد والدته ولم يدرك الأمر إلا بعد مرور أكثر من أسبوعين، تضاعف حزنه ولم يجد بداخله الجرأة الكافية حتى للذهاب لتعزية والدته المسكينة، يكتفى في كل مرة بالمرور من الحارة الضيقة والتذكر حتى بعد كل هذه السنوات

- **هو ذا أنت أيها الصديق الوفي، أعتقد أنك الوحيد الذي يذكرني كلما عبر الممر وربما المدينة ككل، أرى شعر رأسك قد غطاه بعض الشيب والصلع، لكن الموت الذي غيبني شابا ظل محافظا على شعري الأسود وجسمي المتناسق. ليس تماما صديقي العزيز، أمازحك فقط فأنا لم ولن أنسى أبدا أنك كنت تصدق كل ما يقال لك، كما أنني أذكر كل التفاصيل التي عشناها معا، قلت لك مرارا إن هذه المدينة جاحدة بأولادها لكنك كنت تصر على ألا نركب هول البحار إلى عالم أفضل، وكنت متشبثا بالبقاء هنا. لا تسألني عني أنا، فأنت تعرف حكايتي، لكنك بعد كل هذا العمر ما زلت لا تملك إلا التسلل عبر الحارات العتيقة التي لم تعترف بك قط. مدينتنا ابنة كلب لا تحب من يحبها يا صديقي، وأنت ما زلت متيم بها رغم أنك مدرك أنها مجرد عاهرة، آسف صديقي فأنت تحب أن تجملها فتسميها غجرية**
- **لم يغير الموت من حدة لسانك شيئاً أيها الرفيق ما زلت ـ كما عرفتك يوما ـ شابا متمردا ومتذمرا من كل شيء. وأجدني كلما عبرت هذه الحارات مكبلا بتاريخ من الذكريات، وكأن الأموات لم يغادروها قط، وإنما ظلوا ملتصقين بحيطانها حتى لأكاد أسمع همهمتهم كلما عبرت المكان. الأماكن هي الأكثر وفاء منا يا صديقي وأنا كلما خطوت في اتجاه المَلّاح إلا وشعرت بالأرواح تراقبني في**

سكون تام، أحسها أكثر ارتياحا مني وأكثر اتزانا، فسلام عليكم أيها القابعون في عمر الأمكنة، المتحررون من خذلان هذه الحياة لنا.

غادر الحي اليهودي متجها شمالا عبر السوق القديم، حيث تفسح مدينته ـ التي تعودت أن تستيقظ متأخرة ـ المجال للبائعين المتجولين فتتعالى أصواتهم وتكثر الأرجل لتتزاحم بالزقاق القديم، لا يدري ما جدوى كل هذا الصراخ ونفس العابرين يمرون بالمكان كل يوم، يشترون عند نفس الباعة، ويستخدمون نفس لغة التجادل قبل أن يقتنوا بنفس الأثمان تقريبا ويحدثون نفس الضوضاء.

كان يستعجل كلما عبر المكان، يمر بالفضاء الضيق مخترقا الملاح القديم، ثم منه إلى السور الضيق المؤدي لمبنى السقالة، هنا وحدها القطط تجيد استغلال الفضاء الملتوي والمشمس في آن واحد، فلا يثير سكونها العابرون، ولا يوقظها صراخ الباعة ولا آلات التصوير، فالشمس المتسللة إلى الشارع الضيق كفيلة بأن تمنحها الاسترخاء التام.

بينما هو يعبر الممر متوجسا من كل تلك المتغيرات التي لم يستسغها عشقه لهذه المدينة، محدقا حينا في الحوانيت التي صفت على يمينه بكل الألوان المدجنة حتى تستثير السياح، وحينا سارحا بالسور الذي اعتلت حمرته الثقوب تماما كذاكرته والحروف التي يخفيها بمحفظته.

لم تعد مدينته تلك الطفلة المراهقة التي كان يتلصص عليها وهي تغتسل بموج البحر. صارت الآن يافعة، شابة ثائرة الجمال. مرة يحسها غَجر يته التي تبرأت من كل أقرانه لأنهم لم يكونوا في مستوى عشقها، وتارة يحسها أمه الحنون أو الأخت الكبرى التي لا تملك إلا أن تهتم بسيل الشباب العاطلين القابعين على أسوارها صباح مساء.

مدينتنا تقبلنا كما نحن وإن كانت مجروحة في أعماقها بسببنا، نحن الذين لم نكن أبدا في مستوى ما تبتغيه، وما يطلبه منا هذا الوداد. تريدنا كفا جريئة تمسح التخاذل من على جبينها، فلا تضطر أن تتحول لغجرية تطعمنا من جود العابرين.

أيمكن أن نتحرر من العرق الخائن فينا؟ وأن نكون في مستوى الجرأة التي يتطلبها منا الحب، حب الأماكن التي تحتضننا بكل مساوئنا كأم تجيد المسامحة دوما؟

موسيقى الغيوان تنبعث من مسجلة قديمة تكسر صمت الملل بحوانيت تنتظر مرور أفواج السياح الذين لا يخطئون المسار أبدا، فيقتنون من خشب العرعار المنقوش ومن الأثواب المنسوجة والمزركشة يدويا، ومن الفضة القديمة بعض أساور وخواتم..

الحوانيت هنا تكاد تكون متشابهة. المدخل الضيق المؤدي لعمق واتساع غير متوقع، وإن يختلف ما بين عرض فضفاض أو منعرجات تنم على أن هناك اختراقا لغرف البيوت المجاورة وضمها لهذه الحوانيت حتى تمنح السائح مسافة أكبر لتفقُّد البضاعة المعروضة، والتي عادة ما تكون صناعات يدوية متكررة رغم جماليتها المفرطة مما تجود به الأيادي الحرفية لأبناء البلد.

دكان واحد صغير لا تكاد تتجاوز مساحته المترين مربع ظل صامدا. به بعض رفوف صفت عليها كتب وملفات يعتليها الغبار، حتى كادت تتوحد في ألوانها وقد اعترتها صفرة وحدت بينها وبين الحائط الذي نسي مع مرور الوقت آخر مرة تم طلاؤه بالجير فيها. في الواجهة المقابلة للزقاق، وضع مكتب صغير عليه آلة كاتبة قديمة يستخدمها صاحب المحل لكتابة رسائل للغائبين بطلب من أهاليهم وطلبات العمل والتوكيلات وغيرها، فأسلوبه الجميل وخطه اليدوي من قبل أن يقتني آلته ساعده في

أن يصبح أشهر كاتب عمومي بالمدينة، يقصده كل من يود رقن مخطوط أو مسودة رسالة..

- **لِمِ لَمْ تفعل مثل الآخرين يا حاج؟**

سؤال لطالما راوده كثيرا كلما عبر الحي العتيق قبل أن يتجرأ ويسأل الرجل العجوز، لم يكن مجرد جملة استفهامية تحتاج لجواب من أحرف، بقدر ما كانت تعرية لجرح لن يندمل أبدا.

سؤال لم يكن ليجيب عنه، لكنه كفيل بأن يجعله يغوص في عمقه ويقلب أوراق التاريخ.

تتسمر عينه بجانب من السور، فلا أحد يمكن أن ينسى يوم كان شابا ويتعمد الوقوف على أعلى مبنى سينما السقالة لينتظر خروج المتفرجين فيرمي بوريقات كان يخطها بخط يده، كتب عليها بخط كبير جملة "**ليسقط الاستعمار**" فتلاحقه أفواج الشرطة الفرنسية، حتى حدث وأن وقع آخر مرة من على السور، فكُسرت رجله، واعتقل ليفقدها بعد ذلك ويظل صامدا ولو برجل واحدة

- **ومخطوطاتي؟**

- **لم أطلب منك ذلك، أسألُ فقط**

هكذا جاء رده عفويا، ولم يجرؤ أن يجيب على السؤال الذي ظل يلح بداخله حول ما كان سيفعله لو كان مكانه، بينما الحاج يعتدل في جلسته على الكرسي اليتيم بالمكان، والذي قد استعان عليه بلحاف قديم حتى لا يتعب جسده المنهك، وهو يدير مفتاح مسجلته ليرفع من صوت الأغنية الغيوانية مرددا معها في خشوع وقد أغمض عينيه رافعا رأسه عاليا ومستحضرا الطريقة التي تؤدى بها هذه الكلمات:

ماهموني غير الرجال إلا ضاعوا

الحيوط إلا رابوا كلها يبني دار

تناهى إلى داخله السؤال المخزي الذي تخفيه كلمات الأغنية والصوت الصادح الذي يهتم لضياع الرجال.أما الحيطان وإن تهدمت فيمكن إعادة بنائها بعد ذلك،

تذكر صوت أمه زينب التي كانت كلما لمحته يبكي الألم الذي استوطن بين فخديه إلا ونهرته قائلة:

- **لاتبك. كن كجدك، فالرجال لا يبكون.**
- **وهل كان جدي رجلا؟ هل يكون رجلا من باع وطنه للمستعمر، ومن أباح دم الأبرياء العزل دون أن تدمع له عين؟ وهل ظل رجلا حتى بعد أن انحنى يقبل الأقدام لعله يحافظ على رأسه فوق كتفيه؟ أما كان شرفا له ولنا لو أنه أسلم نفسه للموت، أو لهؤلاء الأبرياء يقتصون منه لعلهم يتحررون من جبنهم واستسلامهم، ومن العرق الخائن الذي نخر أجسامهم وتركهم كعصف مأكول يتوارثون لعنتهم جيلا بعد جيل؟ وأنا، كيف تسقطين عني رجولتي فقط لأن عيني أدمعت؟ أم أنك وددت لو أني كنت كما أرادني هو، صورة مصغرة عنه وعن جبروته وظلمه!**

سخر من نفسه ومن طيف زينب الذي كثيرا ما رآه مشدوها من تعليقات المراهق الذي كانه يومها، وأكمل طريقه، فالرجولة التي تتقلص كلما أدمعت عيوننا أهون بكثير من أن تصير أمرا نهتم لفقده.

1

مسودة الانشطار

قدري أن تكون حكايتي رهينة هذه الغرفة الباردة، أقاوم الغليان الداخلي، فليس هناك أسوأ من الانتظار بعد هذا الموت الاختياري، من قال إن الأموات لا يعانون سأم الانتظار؟ أيكفي أن نموت لتموت كل الأمور الحياتية التي كانت تؤلمنا؟ كيف ذلك وأنا وجدتني وهذا الصمت الممل في مواجهة مع ذاتي، والسؤال المؤرق حول جدوى ما قمت به حتى كدت أراني أنقسم لجسدين، لفكرين مختلفين، أنا المقتنع بميتتي، والآخر الرافض لكل ما يحصل معي، أنا الجسد الممدد بقناعة الأموات على هذه الطاولة الباردة وهو الذي يطوف حولي مشككا لكل ما يحصل معي، يتعمد أن يجالسني على الرغم مني.

أُبعده غير ما مرة عن سريري لعله يدرك أنني لا أحب تطفله ومع ذلك يظل بالمكان يرقبني بصمت، يرسم تقاسيم وجهي بدقة متناهية ويقلد نومي بهذا الفضاء الجليدي كأنما صورة معكوسة لي،

- لا تنس أنك مجرد وهم اختلقته ليخفف عني الإحساس بالملل فلا تمنح نفسك الحق في أكثر مما قد رصدت له ولك الحق أن

تؤنسني لكن دون أن تنفصل عني وتتحرر من اختياراتي وقناعتي وموتتي

- **حتى وإن كان ما حكيته حتى الآن لا يمت للحقيقة بصلة**
- **كيف؟**
- **الكلام وحده لا يكفي، أو لنقل أنه لم يعد يكفي.**
- **ألم نتفق منذ البداية أن يكون لنا بعد الموت الحق في كتابة قصتنا كما نشاء، ولا يهم أن تكون الحقيقة، المهم أن تكون مقنعة**
- **حتى وإن لم تقنعني أنا**
- **ألستَ أنا**

رفع يده كمن يطلب هدنة، كان يتعمد استفزازي ويحاول أن يخلق لنفسه عالما موازيا لعالمي، يشبهه في كل شيء، يتعمد أن يسخر من اختياراتي ويستهزئ من قناعتي.

دون أن ينبس بكلمة ليظهر عدم اقتناعه بجدوى الصراعات التي كنت أعانيها، والحروب التي أرغمت على خوضها، كان معارضا لفكرة انتحاري، غير مدرك للدوافع التي جعلتني أقدم على وضع حد لحياتي. كان يجيد رميي بكل الاتهامات التي تُحملني المسؤولية الكاملة في اختياراتي، فكلما بدأت أروي قصة طفولتي إلا امتعض وبدأ يهز رأسه نافيا لكل كلمة أقولها، فيدعي أن ما أحكيه ليس إلا من خيالي وأنني لم أعش بالبادية قط ولا خُطفتُ، ويزمجر كلما تكلمت عن أمنا الغولة، وينهرني أحيانا عن تسمية أحدهم بهذا الاسم،

لم يطق صبرا عن الكلام، وحركاته المستفزة لي ما عادت تقنعه، فما كان منه إلا مقاطعتي وتزوير الحقائق بشكل يثير حفيظتي، ويرغمني

على الصراخ بوجهه وهو يحاول دوما أن يلعب دور المتزن العاقل، بينما أنا المتسرع والمتوهم لحياة لا تمت للحقيقة بصلة.

- **لنعد من البداية، ألم نتفق على أن تكون قصتنا مقنعة، أقصد قصة الانتحار؟**

- **كيف ذلك؟**

- **أولا أنت لستَ ميتا.**

- ماذا؟ أتمزح؟ أنا مستسلم للموت بمحض إرادتي

- **لست ميتا، وعليك أن تقتنع بذلك؟ فقط امنح نفسك الفرصة لتستوعب وجهة نظري، فالأمر سيكون ممتعا ولا شك.**

- **وماذا أيضا؟**

- **عليك أن تقتنع أن تمددك على هذا السرير البارد دون حركة لا يعني أنك كذلك، وأنا الدليل على صحة كلامي، فأنا أنت وأنت أنا أليس كذلك؟ أنا إن أجالسك وأهتم بوساوسك فلأني لا أستطيع أن أفعل العكس، فأنا نصفك الآخر الذي يقوم بالأدوار التي لا تستطيع القيام بها. عليك أن تقتنع بسبب وجودي بقربك وما دوري ومـــــا المفروض أن أكونه وأنا قريب منك دوما، هي مجرد لعبة يا نصفي الساكن الممدد هنا دون حراك. وما كنت لأهتم باختيارك الشق الأسهل في هذه اللعبة، ولا لأقرر لنفسي أن تتعب في اعتلاء كل تلك الثقوب الغائرة من حياتنا، ولا في ملء الفراغات التي صارت ثقوبا سوداء_بذاكرتك وأنت تروي حكايتنا.**

- **لا أستطيع فهم ما ترمي إليه، ولا ما الفائدة من سعيك لتغيير الحقائق.**

- ليس مهما أن تستوعب كل ما أقوله، فالأهم أنك هنا وأنا بقربك أقوم بكل المهام التي لا تثير انتباهك ولا تدرك أبدا جدواها حتى إني لأسأل نفسي مرارا: لِمَ لا أتخلى عنها وأنسحب بعيدا أنا الآخر!؟ لم لا أخلق لنفسي عالما موازيا بسيطا أعيشه كما أحب لكنني أعود إلي بعد كل ثورة وأعلن أنه قدري ودوري، وإن لم تُعِرْه أنت أي اهتمام، فما زلت أخجل من نفسي حين أذكر خروجك للشارع وأنت كما ولدتك أمك،

- أنا !!!!!!!!!؟

- نعم، عاريا إلا من صراخك وأفكارك وهواجسك.

- خيالك واسع رفيقي.

- بل خيالك أنت وتوهمك أنك شخص لا مرئي حتى تخرج للشارع كذلك. أو حين تجزم أنك تمثال، فتقف لساعات طوال تحت الشمس الحارقة دون حركة مما قد يفقدك وعيك لأيام حتى تكاد تصاب بشلل نصفي لولا لطف الأقدار، فألوم نفسي وإن كان لا دخل لي في الأمر.

- ألهذه الدرجة تراني غير مسؤول؟ غير مدرك للحقائق، فاقدا القدرة على التمييز، بين ما هو حقيقة وما هو خيال؟ قد أكون متهورا، متسرعا، لكنني لست مجنونا.

- من قال ذلك؟ أنت فقط شخص واسع الخيال، شخص اعتاد الحلم وإن كنت أدركُ مسبقا أن لا مكان لي في مملكة حلمك، عالمك الآخر الذي تشرد إليه دوما وتتركني خارجه، فما يربط بيننا هو مجرد

واجب يمنحني الحق في ملاحقة تفاصيل حياتك اليومية التي رسمتَها لي كخطة طريق وقررت أن لا تبرحها أبدا.

- ارحل عني إذن. ارحل ودعني لحياتي كما اخترتها. أترك لي ميتتي التي اخترتها وخذ لك ما تتصوره من حياة، وعد لعالم الأحياء.

- مرارا حاولت أن أتحرر منك، ولكم حاولت أن أسقطك من حساباتي، لكنني أعود وأدرك ان لا حياة لي دونك، وحتى تستريح مني وأستريح منك.. أجدني أستجمع الحكايات التي تنسجها لعلي أستطيع فهم ما ينتاب الجزء المبتكر فيك، تحملني تباعا وتزرعني بين أكف ذلك الحلم الطفولي والقرية النائية، أبحث عنك في ملامح من رسمتهم، أتشبه بهم، أتلبس بهم لعلي أستعيد الحقيقة الضائعة لديك، لعلي أكون الحاضر الغائب بين حروفك وأعود بخيبتي من مملكتك المفقودة وأقول: صبرا، يكفيني شرف لملمة شتات خيالك الجامح متسولا للذة الحكي..

- ظالم هذا الكائن المبدع بداخلي!

- لا تستهزئ بهذا الحوار الصريح بيننا، وثق أننا نحتاج كثيرا لأن نتحرر من عقدنا وحياتنا المملة ونختلق عالما نراه أكثر جمالا وإن من صلب هذا الألم الذي نبتكره، وخيالك الجامح هو الجزء الجميل فينا، فتمردك وشغبك كثيرا ما يمنحني لذة العيش، وأجزم أنه صك الغفران الذي يجعلني أسامحك دوما وأعود لمحرابك، أعتنق مذهبك، أحتضن قلبك بين جوانحي كطفل صغير، طائر بحجم الكف يرفرف ويحنو، يسقيني من حوض جنته وينقر على نافذتي كل صباح حتى أصحوَ، ويجعلني أغفو كل مساء بين أحضانه ويعدني أننا

سنعبر إلى الحلم معا، وسنتربع بين جوانبه وسنعيش الباقي من أزمنتنا كطائرين من نور، لكن عقلي المتمرد يطردني من فردوسك ويشكك في شرعية الانتماء إلى عالمك، ينبذني ويرميني بالشذوذ العاطفي والعهر الإنساني لمجرد أنني خالفت الطفل فيك وآمنت أن جحوده للماضي أمر غير مقبول.

- هناك حقائق لا يمكن العبث بها أو تغييرها، فقد تكون قد أصبت نسبيا فيما أشرت إليه، لكنني الآن متأكد أن موتي هو الحقيقة الوحيدة التي عليك تصديقها وما تدعيه أنت أيها المنشطر عني هو الوهم، نوع من التشبث بالحياة بعدما خذلتُ جبنك واستسلمت للموت بسبق الإصرار والترصد

- في كل مرة تنسج حكاية ثم تصدقها وتقرر من خلالها الهروب من عالمك والاختباء بعيدا، تؤمن بها لدرجة أنك لا تؤمن بغيرها ولا تتصور عالما أخر دونها، كذلك الطفل الذي ترسمه في كل مرة على حيطان غرفتك والذي تلبسه دوما حياة جديدة. الحلم الذي عادة ما تحمله بين يديك كأمل لا ينتهي، تزرعه في بقايا الروح المأسورة بداخلك حتى لتكون أنت هو وهو أنت، وفي كل مرة تعبر إلى ذاتك وتختلي به، تمسك بيديه وتعدوان عبر الأزقة هاربين من بقعة الظلام التي عادة ما أخافتك... متى فكرت أن تمد يديك لتجرب محوها، فلعلها لم تكن إلا بقايا رمش سقط في عينيك فخيل إليك شبحا.

- ...

- علمني القرب منك الكثير سيدي، علمني كيف أرقص فرحا على سطح لزج، وكيف أطير بلا جناحين، وكيف أحلم وكيف أصدق

حلمي، وكيف يكون الآخر فرحا وسعادة بأبسط ابتسامة ترسم على شفتيه، لكن ما لم تحكه شهرزاد وما يقره المنطق هو أن الرقص على سطح لزج قد يؤدي إلى السقوط المميت، وأنه لا يمكن أن يكون هناك طيران بلا أجنحة. حقائق ندركها لكن بعد فوات الأوان، كان كل ما يحصل معك حريقا يكاد يودي بالأخضر واليابس. لم أتعرف أبدا على شخص يشبهنا، وأنا الذي كنت أعتقد أنك الجزء الأقوى، لأنك تستطيع ترويض الحكاية وجعلها ملك يمينك كلما أحببت. لا أدري لم قررت أن تختزل عمرك في طفولتك فتبدع بتصور حياة ذلك الطفل الهارب دوما من شبح ما ومن واقع تجيد رسمه بكل أطياف السواد حتى تمنحه مشروعية الهروب المتكرر..؟؟

- مستعد أن أستسلم لك ولو لآخر مرة، أن أسمح لك باختطافي وأن أمنحك القدرة على التحكم في، ولتأخذني أينما أحببت وكأنما أصدق دعواك من أنني لست ميتا لعلك تحررني من ذلك الطفل العابث الذي يرفض أن يكبر بداخلي والذي تعود اجترار الماضي. فقط، أرني قدرتك على تحريري منه، خذني على متن نفس القطار الذي حلمت به كثيرا وأنا صغير، تلك الدودة الضخمة التي كنت أتسلقها في خيالي وأنا أهرب من أمر ما، وهو يجتر حكايتي كامرأة عجوز وأنا أتتبعه حينا راكضا وأحيانا من نافذة إحدى العربات، فأراني أتعدد بعدد عرباته، أدع أشيائي تعبث بأشيائي وأنفاسي ترسمني في كل النوافذ، وطيفي يعيد نحتي وأنا الغارق في حلمي الذي لا ينتهي، أتراني أعيش خارج زماني بعد أن لفظني العالم لغرابتي وبعد أن اتهمت بانفصام الشخصية؟ أتراني كذلك فعلا؟ سؤال يربكني وإن كنت

أدرك في قرارة نفسي أنه انفصام متعدد بعدد الشخوص التي تولدت بداخلي حتى في غفلة مني!

- أحيانا كثيرة نسجن أنفسنا بجملة اعتراضية ونتناسى الجمل الأصلية لنص حياتنا فنجد أنفسنا مضطرين لإعادة النص الأصلي من بدايته وأجدني دوما مضطرا لأن أعود بك إلى نفسك، إلى مدينتك، وأن تستجيب ككل مرة، وإن ببعض التمنع وأنت الذي ما استسغت أوامري قط ولا أوامر أحد، ولا أدري حتى لم تحتاج دوما للعودة لموطن الوجع الشامخ فينا. أنت والصمت وذكريات المكان وأنا المجبر على حياكة نص حياتك من جديد لعلي ألملم شتاتها أو لعلي أساعدك على اكتشاف ما سقط من ذاكرتك؟ ما الذي حصل معك حتى تبدأ بتقمص كل هذه الحيوات وتدعي الموت مرارا هروبا من الطفل بداخلك، هنا بهذا المكان تدعي بأن عقارب ساعتك قد توقفت وتكسرت كل المرايا وصرت تعيش بلا حياة ولا نبض.

- أيكفي أن نعود لمكان مولدنا لنستعيد ما ضاع منا؟

- كنت دائماً معك، لكنني لم أستطع سبر أغوار الجزء المفقود من هذا العمر، ذلك الفراغ الذي يلف الماضي، الوقت الميت المختبئ في ركن من الذاكرة والذي علينا أن نسعى لكشفه لعلنا نستعيد استقرارنا والتوازن ونعود ذاتا واحدة..

- الحياة أبسط بكثير مما تنسجه أنت الآن.

- من السهل أن تعيش حياتك وإن كنت معصب العينين، وإن كنت لا تدري إلى أين تسير، وإن كان سيرك بلا هدف. لكن من الصعب جدا أن تحفر في ماضيك الرافض المتمنع كالباحث عن بقعة ضوء في ظلام

دامس، جاريا وراء روائح الأمكنة لعلك تقتبس منها رابطا ذهنيا يحيلك إلى ما لا تعرفه أصلا، تدير عينيك في كل مكان ويرتد إليك البصر منكسرا متسائلا عما تبحث عنه، وتنكمش المشاعر لأنها لا تجد ما تحسه وأنت تقطع الأزقة والدروب حتى وأنت تتخطى عتبة باب بيت والدك، حيث غرفتك المعلقة والنافذة التي رفضت أن تكبر وظلت ضيقة حتى لا تتسع إلا لوجه ذاك الصبي الصغير الذي عاشت عشقه للشارع حتى عشق العالم من خلالها هو ذا أنت وأنا أطوف بك الأمكنة لعلك تتذكر، أتتذكر؟

- كيف لي أن أفعل وفكري مشوش؟

- سأتعمد بعثرة التواريخ أمامك، نثر الأسئلة عن كل شيء وعن لاشيء، أستفزك، أطيل الوقوف بك عند كل عتبة ترمش لها عيناك، أكسر كل صمت تنزوي إليه وكل ركن تسكن إليه لعل يدك تمسك بخيط ما قد يوصلنا إلى ما لا أحد يدري، ربما هو موت والدك.

- والدي!؟

- أعترف أنه لم يكن الأب المتسامح معك، وربما هو ما جعلك تبتدع حياة أخرى، وإلا ما معنى أن تغرق في صمتك المريب ولا تتحرر منه إلا وأنت أمام قبره. زيارة مربكة فلا أحد يزور قبر أبيه وهو يرقص و يغني،أتتذكر؟

- أمر مربك حقا، هل فعلت ذلك؟

- صوتك النشاز لم يكن أكثر إرباكا من نظرات الناس، وحارس المقبرة يجزم أنك مجنون وأنت تتعمد رفع صوتك عاليا حتى يغلب على خصامه، وهو الذي طيلة سنوات عمله هناك كان وحده صوت

القرآن وتعاويذ الموت مسموعين ولا شيء غيرهما، وعندما أردت إخراجك بالرغم منك من وسط القبور كنت تتعمد أن تبسط يدك أمام عينيك وأنت تلتفت إلي، أدرك أن حياتك لم تكن بالسهلة أبدا وأنت معتقل في بيت والد لا يرحم، أب حاول أن يصادر طفولتك بدعوى أنك ملكيته الخاصة. خاصة بعد اختفاء الأم الذي لم يفسر قط إلا من خلال وشايات لا أحد يملك دليلا عليها حتى إنك كنت تُسقط اسمه من كل دفاترك وتصر أنك لقيط.

- هل تذكر؟
- ماذا؟
- مطعم المدرسة
- نعم، أرأيت !! ها أنت بدأت تتذكر.
- كنا مجموعة من الصغار نقتسم وجبة فاصولياء، وجبة فقيرة مما تجود به المطاعم المدرسية يوم ذاك، كنا نضحك بصوت كتوم ونهمس لبعضنا البعض دون اكتراث بما حولنا، فجأة صمت الطفل الجالس أمامي وركز بصره على ظل خلفي، التفتُّ وإذا هو بحجمه الضخم وأنا المتلبس بجرم أكل الوجبة البئيسة وخلفه المدير يصرخ كالمجنون، لم يصدق أبدا أن هناك من تجرأ وكسّر قوانينه الصارمة، كان يردد مستنكرا جريمتي الشنعاء:
- طفل غير يتيم يتسلل لمطعم المدرسة! أين المشرف؟

وهو الذي كان يشهد له بالحزم المفرط في مثل هذه الأمور، لم أستطع يومها منع نفسي من الضحك

- وحدها العيون الصغيرة تألمت لأجلك يوم ذاك، وربما بكت أيضا، في حين أن ضحكاتك العالية كادت تتسبب في طردك من المؤسسة المبجلة كما تسميها. وحدها صفعات أبيك على خدك الفتي أقنعت المدير بالعدول عن قراره ولو على مضض.

- غريب كيف وظفت الكدمات على جسدي الصغير لتعدل قرارا تربويا مهما جدا يومها؟! مؤلم جدا أن يتحول ألمي لوثيقة دفاع ولا ذنب لي إلا أني أردت مشاركة أقراني فرح اللحظة!

- لذا، ما إن زرت قبره وتأكدت أن صاحب الحجم الضخم قد استسلم لموتته حتى رقصت فرحا. ولتعلنَ أنك قد استعدت مملكة حلمك وأنك قد منحتها الحرية لتنبسط بكفك وأنت ترقبها بحنو الرب، رب يعدل بين الحياة والموت، وجهان لعملة واحدة، للعنة واحدة، لعنة العيش...

- الطريق إلى مدينتي هو كالسفر إلى الماضي، الطرق الملتوية والمعلقة حتى لتحس أنها تسير في اتجاه واحد دون عودة؛ وكنت مجبرا أن أسيره وأن أعيد رسم الأمكنة في مخيلتي لعلي أتذكر، مدينتي التي كنت أحب أن أعتلي أعلى نقطة فيها حتى أحتضنها بعينيي وأنا أصرخ بصوت عال وأستجمع أصابعي ممسكا بها في قبضة كف واحدة مرددا:

  - مدينتي بحجم كف يدي، فأغلق أصابعي عليها بإحكام وأضعها في جيبي وأعود مزهوا عبر أزقتها الجبلية وأنا المالك المتملك بمصير مملكة حلمي، وأنا لا أكاد أستوعب تلك القوة التي تنبعث مني وأنا العابر لشوارعها بخيلاء الفاتحين.

- أما أنا فلا أملك إلا الركض وراءك لعلي أدرك خطواتك، فرح بفرحك، وجس من مصير قد يطالك في أية لحظة وأنت تقترب من البيت المختبئ بين الدروب والباب الذي اتخذ شكل قوس، القوس المفتوح دوما على مصراعه وقد ضاع نصفه المكمل له إلا من عتبة تشكل لك جملة اعتراضية لا تدري متى تنغلق وربما تظل لتستمر أنت في كتابة نص حياتك بإرادتك لا بسوط والدك كما تقول دوما.
- هي ذي حياتي الحقيقية التي تريدني أن أعود إلى تذكرها بين لحظات الصحو والغفلة من تصدعات الذاكرة، الحكاية التي تنتهي دوما بغرفة مغلقة وآثار السوط على جسدي النحيل والتي لم تعد تبكيني ولا حتى تؤلمني.
- أدرك الشرخ الكبير بينك وبين أب لم يستطع بتواضع مداركه أن يفهم ما يحصل معك، وكل ما كان يرتجيه منك هو أن تكون طفلا عاديا كباقي الأطفال تمارس دراستك بشكل اعتيادي وتنجح في آخر كل سنة وتمر إلى القسم الموالي ويظل يكبر معك. لكنك يومها، أنت من كبرت بغفلة منه وظل هو معتقِلا لطفولتك، متبوئا مقعده الأبوي، لا تكاد عينه تلمح الشارب الذي خطته الطبيعة على وجهك فكيف يدرك أنك صرت أطول منه وهو الذي ما رآك إلا مكوما في ركن أمام النافذة المطلة على الزقاق القديم، تراقب مملكتك كما تعقب مستهزئا كلما رأيتني، أستغرب ذلك منك.
- كل هذا لم يعد يهم الآن
- وما المهم إذن؟

- حين تتعدد فينا الحيوات، فهل يظل الموت واحدا أم يتعدد بتعددها؟

- ماذا تعني؟

- أيمكن أن نتحرر من موتنا أيضاً ومن الجسد البارد وننفصل عنه ونتركه هنا؟ فاستحضار الماضي الذي جعلتني أمارسه لم يرسل الدفء في جسدي، بل أغرقني في الحيرة فقط، وجعلني أتساءل عن حياتي الحقيقية، وكان الأحرى أن أتساءل ما إن كنت حيا أو ميتا، فلطالما آمنت أن الموت هو نهاية الحيرة ونهاية الانتظار والفضاء الممتد نحو عالم مريح لدرجة الاستسلام لربطة العنق بقناعة تامة، فلم أنشطر لهذه الفكرة ولم اعد أتساءل عما إن كنت حيا أم ميتا؟

5

تــلك الفاجــرة

لا يدري منذ متى تحولت مدينته لغجرية تتزين كل يوم لتستقبل السياح الأجانب، تراقصهم على وقع موسيقى كناوة، وتنسج أثوابها من حرير أشعة شمسها الدافئة وتزينها بصدف بحر الممتد لتغريهم، وتنقش بالحناء خلخالا، وتستعرض نساءَها بالحايك الأبيض والنقاب الذي لا يظهر إلا عيونهن عبر رسومات تكاد تكون متشابهة في تحد سافر لماضيها العريق.

كيف تتجرأ مدينته لتبيع صور نسائها التي رسمت على لوحات صفت على جنبات الطرق والأزقة، كيف يتحول اللباس الذي كان رمزا للعفة إلى إغراء السائح لاقتحام المحلات، ذلك العابر للمكان الذي ربما لا يثيره من اللباس إلا حقبة زمنية ليست بالبعيدة، حيث المرأة لا تظهر إلا عينيها من وراء قطعة ثوب تبرزهن أكثر، لكن وهو ابن المدينة لا تزيده هذه اللوحات إلا ارتباكا وحيرة دون أن يدري لِمَ..؟ لكنه كان كلما ركز بصره على العيون المتلصصة من خلف النقاب الأسود إلا وأحس بدقات قلبه تزداد تسارعا، فإن مر بها أطلت عليه في تعدد صارخ وهي تفترش القوس المؤدي إلى حارة النجارين مما يجعله يستعجل الخطى دوما في

اتجاه مبنى السقالة لعله يبتعد عنها، وحتى يدرك من على أعلى ركن بهذا المبنى القديم موج البحر المتلاطم.

يحتاج دوما أن يعتلي هذا الشكل الهندسي المقعر والمجهز بشق مستطيل والذي كان يستخدم لمراقبة الشواطئ أيام الحروب.، كان يكفي أن يخترق المكان ليحس بهواء البحر يلفحه، فسقالة الميناء التي يحب أن يعتليها وهي المبنى البرتغالي المطل على البحر تتوفر على برجين كبيرين، ومجنحة بأربع أكشاك للحراسة، فهي إحدى المنظومات الدفاعية للمدينة التي تم تصورها حسب نظرة أوروبية، فهي تحفة معمارية، زيادة على دورها الأساسي في حماية الشواطئ من غارات السفن الأجنبية ومن القراصنة في القرن الثامن عشر..

تسلق إحدى الفتحات وفتح صدره للبحر، أغمض عينيه مستسلما للريح التي تعبث بتفاصيله، على صوت الموج، ارتطم بالصخور التي التصقت بمبنى السقالة، كان صوت ارتطامها مهولا، فتح عينيه، مد بصره بعيدا في أقاصي البحر الممتد، لمح نقطا سوداء منتشرة على امتداد سطح الماء، كانت تقترب ببطء، دقق النظر كثيرا، أيقظه صوت صارم يدعو لإطلاق النار،التفت إلى مصدر الصوت. كان هناك، وكأنه في حياة أخرى، بلباس عسكري، واقفا بحزم وسط الدائرة المرتسمة بركن عال بمبنى السقالة، فاتحا صدره للريح القوية ويده تشير للجنود بالتعجيل بتنفيذ أوامره. استمرت يد الجنود تدحرج الكريات الحديدية وتوغلها في قلب المدافع النحاسية، استمر التراشق بينها وبين النقط السوداء التي اقتربت أكثر ليدرك أنها سفن عليها أعلام بألوان مختلفة. كانت أقدام الجنود تتخطاه وهي تتسارع بجذب المدافع وتوجيهها وحقنها بكريات الحديد الضخمة. جذبته يد وأوقعته بأرض السقالة الصخرية. ارتفعت أصوات الجنود عاليا ومعها صوت القنابل. كانت النيران تلتهم السفن الغازية. كان اللهب يرتفع عاليا، يغرق الفضاء الممتد بين شرفات السقالة والسفن،

الأصوات تتعالى. تكوم في مكانه وظل يرقب ما يحصل، كان الآخر الذي يشبهه يتنقل مُصدِرا أوامره هنا وهناك، كانت أوامره تتحول إلى كتل نارية تغرق السفن التي ازدادت قربا، واحدة تلو الأخرى حتى صار البحر مزيجا من ماء ونار، ازداد ارتفاع الموج حتى ابتلع أخر سفينة، ظل هو مكوما حيث سقط، شاخصا ببصره إلى الأفق الممتد، كان صوت المدافع وصراخ الجنود عاليا، رفع يديه وبحركة لا شعورية لتمتد وتسد منافذ مسامعه، استمر الأمر إلى ما لا نهاية وهو متجمد في مكانه، تكمش أكثر، وأخفى وجهه وسط ركبتيه اللتين جذبهما إلى صدره، ظل كذلك بعض الوقت، امتدت يد إلى كتفه، طبطبت عليه، أصغى قليلا، كان صوت المدافع قد خفت، فتح عينيه ليجد المكان ساكنا كما كان ساعة اختراقه، التفت يمينا ويسرة، المدافع جامدة كما كانت، ليس ثمة سوى الريح القوية وهي تكاد تقتلع محفظته من أرضية السقالة وقد انفتحت وبدت أوراقه البيضاء تطل منها، جذبها إليه وصوت شاب يقف بقربه يقول:

- **حمدا لله على سلامتك، جنونا ما فعلت، أكنت تود الانتحار، لولا أن جذبتك في الوقت المناسب لكنت الآن في عداد الموتى، حمدا لله على سلامتك.**

قال كلماته وابتعد وظل بلقايد ممسكا بمحفظته يحاول تذكر ما حصل، يكاد لا يعي أي شيء، فهو لم يكن يفكر في الانتحار ولا يملك الشجاعة لذلك، هو فقط يحب أن يعتلي السقالة ليتعرى من كل الصراعات التي تختلج بفكره ولا يدري لما شطح خياله بعيدا هذه المرة ليحمله لزمن الهجمات الأجنبية على مدينته المسالمة حيث وقف بنوها وقفة رجل واحد، تذكر شبيهه الذي كان مدافعا عن مدينته، معشوقته كما يحب أن يسميها دائما، أتراها توحي له بما تريده منه، لعلها تريده أن يكون بطلها المغوار، مدافعا على ثغورها بحياته، مهر غال لا يستطيع إليه

سبيلا، هو لا يملك أن يكون إلا هو، لعلها تستكثر عليه أن يتجول بها كقط شارد دون فائدة، لعلها تريده أن يدرك قيمة لحظة صفاء بهذا البرج التاريخي،

- **ما الذي دهاك معشوقتي المتمردة، كيف تستكثرين علي أن أكون أنا ابنك المسالم؟ أهان عليك أن تحبينني كما أنا؟ أمجبر أنا أن أتذكر كلما وقفت هنا الصراعات التي عشتها في الزمن الماضي؟ لماذا كنت بالذات من اخترته لتلبسيه واجب الدفاع عن ثغورك؟ أما علمت أنني أجبن من الدفاع حتى عن نفسي وأنا المكبل بتاريخ جدي الأسود؟ أتراني أنا فعلا من كان هنا يملي أوامره، أم ذاك الآخر الذي لم أكنه أبدا ولا يمكنني أن أكونه؟! ألا ترضين لي بالمرور بسقالتك لأتحرر من صراعاتي وحروبي الداخلية، لأغتسل من نتوئي؟ حروبك معشوقتي كانت مع عدو خارجي، لكن حروبي أنا أعمق وأصعب. عدوي بداخلي، ينخرني من الداخل، يخترق فكري ليرصد كل مخططاتي ويدمرني بأسلحتي، فدعيني أيتها المسالمة أتعرى هنا أمام هذا البحر الشامخ وعلى مبناك هذا من بعض ضعفي وخذلاني لنفسي لعلي أتحرر.**

هو يحب المكان ويسعد بالاختلاء به بعيدا عن تلصص العيون فهو يحس أن السقالة تعرفه كما يعرف تفاصيلها الصغيرة وتشتاقه متى غاب.

مِن فوق هذا المبنى العالي يحس أن الرذاذ الأبيض يتطاير كطفل يعانق أباه العائد بعد غياب كلما اصطدم الموج بالصخور، لكن ما حصل معه اليوم جعله لا يعبأ به، كان شاردا بفكره، بعيدا غير مكترث بما حوله، وهو الذي اعتاد أن يقف لساعات طوال متسمرا أمامه دون أن ترمش له عين حتى يحس بالامتلاء الذي يرتجيه دوما من هذا الصخب الأزرق الكفيل بأن يغسله من نتوئه.

جلس متربعا بركن منزوٍ، تاركا وراء ظهره مدينة تصرخ بلا كلل ولا ملل، بينما هو المتلبس بلحظة خشوع بعد أن انتدبته المدينة لتهديه بعض تاريخها المجيد، استعاد بعض توازنه، استوى بجلسته متربعا كفقيه بباب مقبرة.

ذكره منظره بجلسته مع أمه الملتحفة بالحائك الأبيض، حتى لا يظهر منها إلا عيناها المكحلتان على حصير يمدد أمام مقبرة المدينة بالعشر الأواخر من رمضان، حيث يصطف الفقهاء لقراءة ما تيسر من سورة يس على أرواح الأموات بطلب من أهلهم مقابل بضع دراهم وبعض حبات تين مجفف، وأحيانا بنثر الدعوات على الأحياء بالصحة والسلامة وطول العمر ولأقرانه بالهداية

ـ بوس يد الفقيه حتى يرضى عليك، الفقيه هو بركتنا

كان يكره أن يقبل يد أحدهم وخاصة هذا الذي يتخذ من بعض الآيات القرآنية والدعوات المكررة وسيلة للاسترزاق، لكن لهجة أمه الصارمة تجعله يفعل ذلك دوما بعد ما ينتهي الآخر من الدعاء، كانت ترغمه كل مرة فلا يجد نفسه إلا منصاعا لأوامرها، بينما هي تنحني بعدما تستقيم واقفة لتلمس طرف رأسه بأصابعها المتسترة بطرف الحائك ثم تقبل أصابعها تبركا.

تستمر طول الطريق تتكلم عن بركة هؤلاء الفقهاء وعن الطاعة الواجبة خاتمةً كلامها بوجوب عدم إخبار أحد بتلك الدعوات حتى يتقبلها الله منا. الأمر الذي لم يقتنع به أبدا خاصة وأنه يحس دائماً أنها تخفي سببا آخر لذلك الكتمان الذي تطلبه منه.

الفقيه في نظرها كان هو الوسيط بينها وبين الله. لكن من يمكن أن يكون الوسيط بينه وبين حروفه، كان لا يملك إلا أن ينصاع مجبرا لألم المخاض بداخله، فحروفه تمارس حقها في الوجود الجبري و المقنع، يفتح محفظته التي كادت أن تفقد لونها البني بتوجس كبير، فكتاباته عادة ما

تتعجل الانفلات من حصارها بتضامن من الريح الذي يستوطن المكان، تواطؤ أدركه متأخرا بعدما رأى بعض حروفه السابقة تتطاير في الفضاء لتتلبس بموج البحر في سفر بلا عودة.

وأنت تراقبه عن بعد تكاد تتخيله مايسترو يشرف على فرقة موسيقية، يرفع يديه وينزلها بتؤدة حينا تتخيله وقد أجلس حروفه أمامه كأطفال صغار فيصرخ بعنف أحيانا لعله يهدئ من روعها، ثم يرفع سبابته ويضعها على شفتيه، يدقق النظر يمينا ثم يسارا، يصغي لكل طرف على حدة، ثم للقوس المقابل كأنما يشهده على قولها.

هنا يغرق في أوراقه كما يشاء، يبعثر حكايتها ويمنحها مطلق الحرية بأن ترفع صوتها عاليا مستعجلة لفهم ما قد يركن إليه هو في فكره المظلم، بينما هو الذي نصَّب نفسه قاضيا وإن كان متهما أيضاً في نفس الوقت والمكان كله شاهد الآن وحاضر حضور التاريخ ليحكم بينه وبن حروفه.

يستمر طويلا دون أن ينتبه للعابرين من المكان ولا لتلميحاتهم بأنه قد يكون مجنونا ولا للعاشقين اللذين احتلا الركن المقابل له في عناق وقُبل غير مكترثين بوجوده. انتفض واقفا، تحسس جيبه باحثا عن شيء ما، لملم أوراقه المبعثرة هنا وهناك ثم غادر في صمت...

كانت الشمس قد استسلمت لخد البحر متمددة بنورها على امتداده في تكاسل المحبين، لكنها رغم ذاك لم تستطع أن تبعد بلقايد عن قلعته إلا بعد أن بدأ الظلام يغزو الأزقة ليتحرر منها ويعود يتلصص عبر الحواري العتيقة متخفيا عن اللوحات التي عادة ما يحسها تحاول في كل مرة أن تمسك به كلما عبر الزقاق أمامها.

مسودة الموت المتعدد

ربما تعدد كل هذه الحيوات قد يؤدي بالضرورة إلى تعدد الموت، لم لا؟ أو ما قد نسميه حياة ما بعد الموت، ماذا لو قررت أن أتحرر من سريري البارد و أن أغزوَ العالم من جديد ولا يهم إن كنت حيا أو ميتا، ألن يكون الأمر انتصار ا والشوارع التي كنت أعبرها خفية من أن يكتشف أحدهم الجوع الذي يعتصر أمعائي والبرد الذي استوطن حذائي المثقوب والغربة التي تكبلني أو حتى جبني الذي أتقنته!!

هو نفسه الشارع الذي قد أمشي فيه مزهوا فلا أحد يستطيع أن يلمحني وأنا الملتحف برداء الموت، وحدي ألمحهم، أسمعهم، أستهزئ منهم.

سأجرب ولو للحظة أن أترك للموت جسدي البارد، سأكون شخصا آخر غيري، أو ربما ذاك الآخر الذي سكنته يوما وعلق بذاكرتي، لا أدري كيف، لكن قررت أن أهمله هناك على سرير بارد دون أدنى إحساس بتأنيب الضمير، أتكوم في أعلى ركن بالسقف، أطالع الأيدي التي تتناوب عليه بالتقليب فيه والعبث بأشيائه، حتى إذا مللت ذاك المنظر المشمئز غادرت الغرفة من أقرب جدار ودون البحث عن مخرج أو باب لأجدني

أتنصت على المارة العابرين للممر دون اكتراث، محاولا مشاكستهم بردودي التي لا تصل مسامعهم، في حين أن حكاياتهم كانت تتعرى لي وأسرارهم تنكشف دون عناء، خارج الغرفة أقدام أعياها المسار، تجر أنابيبها، تترنح يمينا ويسارا، تلتصق بالحائط، تعبر الممرات، يقيدها الألم فتصدر أصواتا تنخر المسامع. الموت وحده كفيل بأن يجعلك ترى العالم بشكل مختلف. يجعلك تتلمس آلام الآخرين من وراء ستار كاشف، فتحاول أن تقيسه بمحرار الألم بداخلك. تلك الأوجاع التي اختبرتها زمنا وأنت تراقب العالم من حولك وتتساءل هل استطاعت عيونهم أن ترصد مقدار ما تعانيه وأنت ببهو مستوصف لا يمنحك حتى كرسيا تسند إليه تعبك، وأمامك ملامح عدة لا تدرك تاريخها الوجعي، وأنت تتفقد بطاقة صغيرة بين يديك سُجل عليها رقم ترتيبك، حتى تقابل طبيبا قد لا يمنحك من وقته إلا ثوانيَ بعد ساعات انتظار، ثم تغادره وقد أيقنت أن الآلام قد زالت، فقط لأنك أدركت أن شفاء الوجع هو الوجع.

الباب الزجاجي أشبه ببوتقة ضوء قادمة من الفضاء، وفي الخارج مسار عشبي ملتو، استجمع طفيلياته ومنحها الحق في النمو مادامت لا تتجاوز إلى الممر الضيق للعابرين فتموت تحت أقدامهم،

كانت هناك، عند الباب الخارجي، سيدة في عقدها الخامس، ملامح بدوية، شامخة كنخلة رغم القلق البادي عليها، ترتدي جلبابا تداخلت ألوانه، شال مكوم تلفه على رأسها وعنقها بعشوائية، عينان ذابلتان وملامح ضائعة، تقف بين شابين، الأكبر سنا بجلبابه الرمادي، والأصغر بقميص وسروال جينز، إلا أنك تدرك من الوهلة الأولى رغم الفارق العمري أنهما أخوان، كانا شديدي الشبه، كانا ولديْها، فوحدها الأمومة لا تكون في حاجة لتشابه ظاهري، كانت الشمس قد رسمت سمرتها بالتساوي على

ملامحهما لتؤكد انتماءهما لنفس المكان والحزن المرتسم على الوجوه دليل على صلة القرابة.

كم غريب حين يتحول الحزن في لحظة إلى سمة جينية يتلبس بنا فيمنح لونَه للعيونِ، فتذبل الجفون، ونصبح متشابهين في كل شيء، متقاربين عمريا، فنحن نولد كبارا بكبر الحزن فينا.

كانت الأم تتوسطهما، تنظر إلى هذا، و تحملق في ذاك، يكثر الكلام بينهما فتشرد أكثر، تفكر.. حديقة المستشفى تفترش شمس صيف قادم قبل أوانه، تتظلل الأم بكفها السمراء، تنحني، تجلس القرفصاء، يبقى الولدان كظلين حولها، يستمران في النقاش حول التطورات الصحية لأخيهما المريض وتصريحات الطبيب والتوقعات المقلقة، يهوى الظلين ليقتربا منها أكثر وتستمر الحكاية، ملامح الشاب الأكبر أكثر بؤسا وهو يحكي عن صغيرها الذي لم يصل العشرين من عمره بعد، الغائب عن الوعي منذ ليلتين نتيجة سقوط غير متوقع من سطح البيت.

- **علينا أن نؤمن بقضاء الله، فالحالة لا تبشر بالخير، يقول الطبيب إنه أصيب بكسر في جمجمته والنزيف طال جزءا من دماغه واحتمال نجاته ضعيف جدا، لقد أكد أن المسألة كلها مسألة وقت، ساعات، لذا علينا تقبل الأمر ولا راد لقضاء الله.**

ينتفض الشاب الثاني واقفا، مزمجرا، يستغفر ربه، يستجدي الرحمة، يرسم الأمل بعيني أمه، يدعوها للسفر للعاصمة، يحدثها عن الإمكانيات الضخمة والعلاج الحتمي.

- **وهل كان الطبيب إلها؟ أتريدنا أن نكفر؟! الأعمار بيد الله لا بقرار الطبيب، لا يمكن الاستسلام، هناك حالات أكثر سوءا وشفيت. هناك**

عملية بسيطة يتم خلالها فتح ثقب صغير في الجمجمة والتخلص من الدم المتسرب للدماغ. علينا أن نسافر للعاصمة، لمستشفى أكبر. هناك فرصة أكبر للعلاج. هنا الإمكانيات محدودة ولا أجهزة ولا عناية.

ترنو إليه الأم، تقبض على الوجع كجبل منكسر، تقتسم النظرة بين ولديها، يعاود الأول، يبعثر الشوك بأرض المريض، ينشر التخوف من سفر بعيد ينهك القوى، عن القيظ وعن مريض لا يحتمل الطريق، عن النزيف الذي قد يزداد بفعل اهتزازات سيارات الإسعاف، عن قسوة القلوب، والتطبب المشترى عن زمن لا مكان فيه للضعيف.

- **ألم تسمعي كلام الطبيب؟ لقد قال إن أية حركة قد تضاعف النزيف وإنه لن يتحمل السفر، ولكي يسافر في سيارة مجهزة نحتاج لمصاريف غالية، ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد! فأي مستشفى متطورة لن تقبل بدخوله إلا بعد دفع مبلغ المصاريف كاملة، كل هذا والنتيجة غير مضمونة -**

تنكمش الأم، تغير يدها المظللة بالأخرى، ينحني ابنها الأصغر، يضع كفه على الكتف المنحني منها، يهمس لها، تفتر نظراتها، تغرق في داخلها، تنغلق، ترفع كفيها، تستجدي قوة ترشدها، يبتعد الابن الأكبر قليلا، يبعثر أرقام هاتفه، يستنجد بصوت بعيد، يطلب مشورة.

- **-آلو، نعم،، ربما،، كيف،،،؟**

يطيل الهمس، يكثر الشرح، يغرق في الإصغاء، يفتر الشاحن ويصمت الهاتف، يقترب من والدته، يحاول أن يشرح لها، كانت ملامحها أكثر

ضياعا، أسهب في الكلام ولا ردة فعل منها، كانت حاضرة غائبة، سألها عن قرار ها الأخير، لم تلتفت إليه، ردد الجملة بصوت مرتفع :

- **-ماذا قررت؟**

انتفضت، وقفت، تنظر إلى لاشيء، تحملق في ولديها، تشرد قليلا، تستحضر من مروا بالمكان.. تمتلئ ساحة المستشفى الفارغة، تحصي من عادوا سالمين ومن غادروا إلى دار البقاء. كان زوجها بينهم، يختفي الجميع ويظل هو، ينظر إليها، لم ينبس بكلمة. طوت الأم الحكايات المبعثرة وعَدَت نحو الداخل تستفسر عن حال صغيرها، من كل وزرة بيضاء عابرة بالممر، شبح الأب أقلقها. كانت نظراته كافية لتلبس أوصالها برودة تذْكرها جيدا.

يستسلم الأخوان للحائط المجانب للباب الزجاجي، يستمر الحكي بينهما، يصمتان كلما مر بقربهما عابر، ينزويان إلى بعضهما، يضيعان من بعضهما، تعود الأم بعد حين، تفترش الأرض، تمدد ساقيها بالممر الضيق، تنسى القيظ، تتناسى ولديها، شاردة كانت، يلتف الولدان حولها من جديد، يحملقان، ينتظران قرارها. ترفع كفيها السمراوين عاليا، يصمتان، يتذكران موقفا مشابها تهوى بالكفين على الفخذين الممدتين يتعالى النحيب.. مات الصغير

6

أشبـــاح الليـــل

لا يذكر متى بدأ يخشى نساء اللوحات التشكيلية، لدرجة أنه قاطع الأروقة رغم أنه يعتبر نفسه مبدعا يجب عليه التفاعل مع كل الأنشطة الثقافية التي نادرا ما تجود بها مدينته بما فيها الفن التشكيلي، لكن هذه اللوحات أصبحت تحتل الشوارع لتحدد إقامته وتمنعه من ممارسة التسكع بالأزقة التي تشبهه كثيرا في جنونه وفي صمته.

ربما الأمر كله مرتبط بهذا اللباس الذي بدأ ينقرض بحكم التطور المعيشي واضطرار المرأة للباس يساعدها على التحرك بحرية لقضاء حوائجها، أو ربما بالحكاية التي لطالما تداولتها العجائز عن صاحبة الحائك ذات القدمين على شكل حوافر الماعز والتي كلما قابلت رجلا إلا وصهلت في وجهه تلبسته الحمى ومات خلال أيام.

" أنت أيضاً كنت تلبسين الحايك أمي لكنني كنت أحبك به، كنت الوجه الصبوح الذي يشرق علي سواء بذلك اللباس الأبيض أو بلباس البيت الطويل، القفطان الذهبي المطرز الذي تعشقين ارتداءه دوما، أنا أيضاً أحبه وكنت كلما لمسته إلا واندفعت الحكايات من فيك عنه وعن أمور كثيرة، كنت تتقنين الحكي عن الخرافات، كنت أحبك في جميع حالاتك، معك أمي حتى الخرافة أصبحت حقيقة ويقين، أمر لا يحتاج

لمعطيات حتى نصدقه أو نـومن بـه، معـك عرفـت أن الخيـال ممكـن أن يشتبك مـع الواقـع ليشـكلا حقيقـة ثابتـة، معـك دخلـت قصـور الجـان، وسافرت عبر الزمن وارتويت بحليب الطيـور، يكفـي أن تـروي لي قصصـا لتكون حقائق مصادق عليها، أتذكرين حكاية عيشة قنديشة، المـرأة التـي تلبس الحايك ولها حوافر مـاعز، مـذ حكيتهـا لي وأنـا أحـدق نظـري عـلى أقدام النساء اللـواتي يلبسـن الحايـك رغـم أنـك أخبرتنـي أنهـا لا تعـترض طريق الصغار، إلا أنني كنت أهاب كل امرأة كانت تخترق خلوتنا بالبيت الكبير، كنتِ وما زلت حتى بعد رحيلك مصدري الوحيـد مـن المعلومـات وكتاب التفاسير لأحلامي الطفوليـة، وحتـى بعـد أن كـبرت كنـت وحـدك تمتلكين القدرة على الحضـور إلي متـى شـق عـلي فهـم أمـر مـا، لكنـك لم تفسري لي لم تلِحُّ اللوحات على عدم إظهار أقدام النساء ولِمَ لَمْ تظهـر إلا عيوهن كأنما قد افتتحا حربا جديدة، نوع من تغيير تقنيات الحرب عوض الأقدام التي تشبه حوافر الماعز، إلى العيون التي يكفي أن تنظر إليها مرة لتحس أنها تتلصص عليك وتراقبك أينما ارتحلت "

يعجز بلقايد عن إدراك الفرق بين الخرافة والحقيقة حتى وإن كان لا يصرح بموقفه، والذي أدركه مع مرور الوقت، من أنه أصبح يهاب تلك اللوحات ويتحاشاها.

أحيانا يعتبر أن الأمر كله مرتبط باللون الأسود الذي يمنح العينين وضوحا أكبر لكن بياض الحايك لا يختلف كثيرا عن مدينته بما أنها قد اتخذت الألوان خلفية تبرز بياض حيطانها فتبدو كصدفة براقة بين زرقتي السماء والبحر.

مدينته غجرية جريئة تجيد الرقص على موسيقى بالألوان، تثيرها النغمات الإفريقية التي تناقلت بفعل تجارة العبيد في زمن مضى، لتصبح موسيقاها الرسمية المرتبطة بها دون سواها.

تغريه هذه الموسيقى كثيرا التي تتميز بصخبها وروحانياتها في نفس الوقت، فلم ينس أبدا وهو المراهق حين تقذفه المدرسة زوالا فيعرج على الزاوية رفقة صديقه المتوفى، يعتليان سلما خلفيا، سلما خشبيا متهرئا، يكاد صريره يفشي سر تواجدهما، يتكومان بركن قصي ليراقبا ما يدور بالزاوية، يطلان من نافذة صغيرة على البراح الكبير حيث نافورة صغيرة تتوسط المكان وقد صفت على جوانبها أفرشة ملونة ومخدات فقدت ألوانها تفسح المجال للعازفين للجلوس بمحاذاة الحائط الذي طلي بجير أبيض ناصع، يتوسطهم "لَمْعَلَّمْ" الذي تلبس بحالة متصوف يحيط طقوسه بهالة خاصة وألوان وأبخرة حتى لا تكون مجرد طقوس غنائية فقط، بل تقربا إلى الله وتضرعا متذكرا ضحايا زمن العبودية..

يتحول صديقه حين يغادرا المكان بالعارف بأسرار الزاوية، فهو قد داوم المراقبة عليها قبله بكثير يمده بمعلومات عدة، يتعمد تقليد رقصة المعلم وهو يعزف على آلة الهجهوج، يرقص متخيلا النغمات الفريدة قبل أن يخرج من جيبه قصاصة كتب عليها:

"أكناو وهو المصطلح المرتبط بهذه الموسيقى، وهي كلمة أمازيغية قد يقصد بها أصحاب البشرة السوداء أو ذوي الأصول الإفريقية وقد يعني أيضاً المتلعثم، وفي كلتا الحالتين قد نربط بين الظاهرة وبين القادمين من جنوب الصحراء، سواء من لون بشرتهم أو من حيث صعوبة التواصل لغويا مع سكان الشمال، ويبقى هذا هو الرأي الأقرب خاصة وأنه وحتى بعد مرور هذه القرون ما زالت الموسيقى الكناوية تحتفظ بمصطلحات إفريقية يتم التغني بها سواء بإدراك المعنى أو دونه."

ثم يستطرد:

- **هي تعتمد على أدوات بسيطة خاصة بها وإيقاعات متميزة تجمع ما بين المقاطع الدعائية المستنجدة بالله والمُقرة بالجن، ضمن طقوس عادة ما تبتدئ بتقديم القربان الذبيحة والبخور، حيث يكون الموسيقيون على شكل دائرة في سكون حزين يقارب البكاء قبل الوصول إلى مرحلة الحال أو الجدبة، وهي مرحلة قد تصل إلى مرحلة الرقص بلا وعي تحت أغطية مختلفة الألوان يتم اختيارها حسب الموسيقى باعتبار أن كل نغمة هي موجهة لجن معين، أو كما يصطلح عليه ب "الْملْكْ" - بتسكين كل الحروف- وتظل هذه الموسيقى تاريخيا مرتبطة بعصر العبودية واستحضارا لحقبة حزينة من تاريخ الإنسان الإفريقي.**

هذا ما أخبره به قريب له باحث في هذا النمط الموسيقى الذي ارتبط بمدينته، مع أن بلقايد لم يكن يحتاج لمعرفة الكثير عن هذا النمط الموسيقي وإن كان يدرك دوما أن هناك أمرا ما يشده إليه، مما يجعله يستحضره حتى مع نفسه، فهو يعشق هذه النغمات لأنها كفيلة بأن تتلبسه وتجعل جسده يتمايل كدخان البخور الملزم لهذه الليالي التي عادة ما تقام بقدسية خاصة.

الشوارع المغرقة في ظلمتها وموتتها المختارة كانت تلفظه بعيدا وهو يدندن بموسيقاه، حتى يكاد يتخيل المباني العتيقة قد تلبست بألوانها وأحضرت بخورها لتشيعه إلى بيته على نغماتها. كان يقف بين الفينة والأخرى مغمضا عينيه ولسانه يردد بصوت مبحوح و بتأثر مبالغ فيه:

لله أبابا ميمون

لعفو أبابا ميمون

لا يستغرب نفسه وهو يقف بين أشباح الليل ذات الملامح الإفريقية وهو صاحب البشرة البيضاء والعيون الشهلة، كانت أمه دائماً تحب مداعبته قائلة

- **كلما نظرت إلى عينيك إلا وتخيلت المختار يطل علي منهما. تملك نفس لون عينيه. هي الجينة المتبقية من جدك البرتغالي، جدك الأكبر الذي قذفه الموج على سواحل قرية أبيك فتزوج من إحدى نساء القبيلة ليغرق القرية بأطفال يقتبسون شكله الأوروبي المدجن من شعر أشهب وعيون شهلاء وملامح لا تتلاءم والقرية التي انغرس بجذورها.**
- **كان من الممكن أن تخبريني أنني أحمل نفس لون عيون أبي دون أن تحتاجي لكل هذه الخرافة**
- **ليست خرافة، المختار من رواها لي ويمكن أن تسأل أهل القرية.**

كان يحس بالألم كلما تذكر القسوة التي كان يخاطب بها والدته. هي لا تلومه، فهي لا تملك إلا سرد الحكايات التي سمعتها واستطاعت بها أن تخلق منها عالما موازيا تخترقه كلما أحست بالضجر.

كل مباني الحواري التي يمر بها تستعد لتتحول لفرقة موسيقية كناوية كلما مر بها، فيترنح على إيقاعها ويتمايل مرددا عباراتها غير آبه لمن يزعجهم صوته كل ليلة، حتى صارت طقوسا اعتيادية لسكان المدينة العتيقة، وهم لا يملكون له إلا الدعاء.

وحده ذلك الانفلات يجعله سعيدا وهو يعود لخلوته، وقد تحرر قليلا من الإشكالية التي تسكنه حول الحياة والموت.

لم يكن مذنبا أبدا حين بدأ روايته بمنتحر أسلم نفسه لربطة عنقه، فهو مازال يردد الجملة التي بدأت بها رواية **لوف ستوري** *حكاية حب* الشهيرة على لسان البطل

- **ماذا يمكن أن نقول عن شابة ماتت وهي في عمر الخامسة والعشرين أنها كانت جميلة، ذكية.. ماذا يمكن أن نقول؟**

هي جملة لا يدري ما ترتيبها بين صفحات الكتاب، لكنها ظلت عالقة بذهنه، فكان سؤالا مريرا عادة ما ينساه القارئ باستمرار الحكي، ويتناسى من خلال استرجاع الأحداث أن البطلة التي تقاسمه حكايتها كانت قد أسلمت روحها للسماء وجسدها للثرى بأمر صارم لا رجعة فيه من المؤلف.

على الأقل هو كان رحيما، ولم يحسم بعد في موت أو حياة شخصيته، وبالتالي ترك لها فرصة أكبر لتكمل مسارها ولو بجسد منشطر، وبغرفة باردة، ومنحها الحق في اكتشاف عوالم الحياة من خلال الموت.

وضع حقيبة على الطاولة وسمح لشخصيته أن تحتل الفضاء من جديد بينما هو قد مد رجليه على الأريكة اليتيمة، سارحا بفكره بعيدا وهو يردد جملته المعتادة

- **أنا لا أريد أن أموت قبل أن أموت**

كرر الجملة بنفس الطريقة التي كان يقولها بطل إحدى مسرحيات كاتبه المفضل عزيز نيسين، كأنما يحاول أن يستسيغها أكثر وأن يقنع بها ذاته قبل شخصيته وهو الذي ترجل عن الحياة المعاشة دون إقرار بذلك.

مسودة الريبة

أنسحب من الفضاء الخارجي وأعود لغرفتي أتكوم بجسدي وقد امتلأ المكان برائحة الموت. أحاول أن أستعيد جسدي، وأنا المهمل في غرفة التشريح المنسي على حافة الموت، والمشارط تتعفف من لمسه، والأيادي الناعمة التي سمح لها بكل قواه العقلية والنفسية والروحية أن تعبث به تتجاهله وتمر قرب سريره وتكاد لا تلمحه، وأنا من أقدم على الموت لأنني ظننتها ستحررني من تلك الدودة التي تتوالد بجمجمتي وترغمني على فعل أشياء مشمئزة، ولم أكن أعلم أن الدودة لن تموت حتى وإن متُّ. ما بها تتوالد بداخلي وتوصلني إلى حد الارتياب من حالي وما إن كنت حيا أو ميتا؟!

أيمكن أن ندعي الموت وكيف؟

سؤال محير فكيف يمكن لي أن أثبت أنني ميت فعلا؟ وأن هذا الجسد يرفض أن يتحلل وينشر روائحه في الفضاء، والمشارط لم تقرر بعد متى تخترقه؟

ماذا لو صدقت دعواه أنني ما زلت حيا؟ ودعوت جسدي للحظة كَيْ يساعدني وينفض عني الإزار الرث، لأستطيع منح هذا الجسد المتهالك ما

يجعله يقف من جديد، أن أحرر قدمي وأن أرقص وأنا عار في شارع عام، أن أغازل المرأة الشقراء التي وهبت نفسها لكل عابر سبيل إلا لي.

أيكفي أن أدرك أنني ميت لأكون؟ وماذا لو لم أكن كذلك؟ ماذا لو كنت ما زلت حيا؟

فقط هو المنبه العجوز أغفل إيقاظي، أو ربما فعل وأنا كعادتي تجاهلته فانكمش مرتعدا قبل أن أقذفه بعيدا؟

أيعقل أن يعاندني ويعقد اتفاقه مع ضوء الشمس وستائر الغرفة وصراخ الأطفال في الشارع ويتعمد أن يوهمني أنني ميت؟!

أحاول أن أدرك بحواسي جسدي، وأن أجزم أن ما يستر عورته هو إزاري الذي فقد ألوانه وتلبس بالصفار، ربما أكون ميتا فعلا ولم يجدوا ما يضعونه فوقي غير هذا القماش البالي.

ماذا لو جربت نزعه؟ لكن وماذا إن لم أفلح؟ وماذا لو فعلت ونجحت؟ لكن لو رفعته قد أجد أحدهم يتلصص على جسدي العاري في مزاح سخيف لا يضحك غيره.

ما العمل إذن؟ لا يمكن أن أبقى هاهنا دون حركة وأنا لا أدري أأنا حي أم ميت! سأحاول ولا يهم كيف ستكون النتيجة فإلى متى سأظل هنا غير مدرك لمصيري؟

الأمر سهل جدا..

أولا أبدأ بتحريك أصابعي واحدا واحدا، ثم يدي، فأزيل الإزار عني، لكن ماذا لو فعلت وفشلت؟ كل الاحتمالات واردة، فلا يعقل أن أكون متروكا هنا بجسد عار لم يجد ما يتستر به إلا إزارا تكالب عليه الزمن ومساحيق التنظيف حتى أفقداه لونه وأحالاه لصفار يشبهني.

لا يعقل أيضاً أن أكون ميتا وأنا مغطى بإزار أعرفه ويعرفني، فللموت حرمة تقتضي غطاء من نوع خاص، ربما لم يجدوا غيره ليستروا به موتتي، كيف لي الآن أن أدرك ما إنْ كنت حيا أو ميتا؟

قد لا يكون الأمر إلا دعابة سخيفة، فلا يعقل أن يتم تجاهلي وأنا حي وأنا ميت؟ قد لا يكون انتحاري إلا كابوسا مزعجا، فأنا أجبن من أن انتحر، أو ربما انتحرت فعلا لكنني لم أمت ولهذا لم يتم تشريحي حتى الآن.

كيف أكون ميتا وأنا أكاد أبصر رفيقي وهو يعبث بكل ما يخصني وما زالت مخيلتي تقلب ذكرياتها وتنثرها في الفضاء حولي؟ كيف يمكن أن أجزم الآن أنني ميت؟ وكيف يمكنني الجزم أنني ما زلت حيا؟

ماذا لو أحس مَن حولي بحيرتي وقرروا نيابة عني بأنني ميت وشيعوني؟علي التفكير جيدا فما زال الأمر بيدي.

أعتقد...

كيف أشك. وأنا ميت بشهادة الشرطة والطبيبة المشمئزة وربطة العنق والعقدة الفريدة وجيراني الأعزاء؟ لا يمكن أن أتجاهل المحضر المرمي على حافة سريري والمشارط التي ما زالت تتعفف من لمس جثتي والأنامل التي تعبث بكل الأنابيب بالغرفة البيضاء ولا تعيرني اهتماما.

يتجاهلونني حيا وميتا!

لم يعد هناك ما قد يثنيني عن ممارسة الشغب الذي حلمت به طويلا وأنا أقطع الطريق الملتوي كل صباح في بحث مضن عن لقمة عيش وبعض عرق ثم أعوده مكسورا كل مساء، أَعد القطع النقدية وما قد

أُقايض بها لعلي أسكن ناقوس الجوع الذي ما فتئ يزغرد مربكا كل حواسي.

حتى لو لم تسعفني أعضائي، وأيقنت أنني ميت الآن فماذا لو تركت لهم هذا الجسد البارد و تحررت خارجه ولي أن أعود إليه متى شئت، أتلبسه، أعود لصقيع الموت فيه متى اشتقت للحظة سكون. ولأهرب من كل هذه الفقاعات التي تلتف حول أعناقنا وتغرقنا فيها حتى نتهم بالحياة، سأدع لهم أفكارهم وهواجسهم وتصنيفاتهم لأكون أنا فقط، أنا كما لم أكن أبدا بأحلامي الطفولية وأفكاري البسيطة، أنا وكفى.

لم يعد لي ما أندم عليه ولا ما أتوق إلى العودة إليه في هذا العالم الزئبقي الذي ما عهدته إلا جاحدا.

- **هل أنت متأكد؟**
- **مرة ثانية؟ ماذا تريد؟ ليس معنى أن تَصْدق في أمر ما أنك كذلك دائما.**
- **أجبني أولا، أمتأكد أنه ليس هناك ما أنت نادم عليه لأنك لم تحققه؟ أتظن أن الأماني سلعة ظاهرة معروضة كأي سلعة في سوق شعبي، قد تكون مخبأة فينا دون أن ندري**
- **أهلا مِسْتِرْ مفكر، هل أخبرك أحدهم من قبل أن الأموات لا يحتاجون إلا لطمر التراب على أجسادهم ليرقدوا في سلام؟**
- **انس جسدك للحظة، ألم يخطر ببالك قبل قليل أن تتركه لهم، افعل وأغمض عينيك ولن تندم فقد تكون آخر مرة أزعجك فيها.**
- **لو كان في الأمر راحة منك فعلتها، أكيد.**

لا تغريني هذه السخافات التي ينطق بها هذا المنشطر عني وقمة الجنون أن أجدني مستسلما لطيف ليس له من دور إلا انتقادي، ورغم ذلك فعلت وليتني ما فعلت فقد كان علي فقط أن أغمض عينَيَّ لينبثق حلم خفي لم أكن أدري أين ترعرع وكيف اكتمل رسمه بداخلي، ولأكون هناك، أنا وليس سواي، أراني من وراء حجاب لا ملموس نائما على سرير كالحلم.

الغرفة لم تكن شاسعة بقدر ما كانت منظمة وبسيطة، مضاءة بنور دافئ، يتلبس بالستائر ويعكسها كشمس ما كنت ترى منها إلا وجهها الجميل. لمحتُني نائما كما لم أنم من قبل. أحسستُني متصالحا مع ذاتي وأنا الذي لم أكن كذلك أبدا. الركن المواجه للسرير كان يعكس بمرآته غرفة فاخرة، دولابا بخشب العرعار منقوشا بجمالية تعكس ذوقا ما عهدته فيَّ أبدا وشاشة تلفاز اتخذت من الحائط المقابل مستقرا لها.. كان الذوق العام للغرفة يمنح اطمئنانا غريبا. كل الأشياء مصففة بعناية في مكان لا يمكن إلا أن يكون لها، بساطة فخمة جدا.

أية حياة هذه التي أعيشها دون أن أعيشها!؟ كيف لهذا الشبيه أن ينعم بما لم أنعم به أنا، كيف يتحقق له حلما طالما راودني وكنت أراه أبعد من أن يتحقق!؟

المنبه الذي افترش طاولة تجانب السرير يصدر صفيره الحنون لإيقاظه من نومته ومن هذياني، زقزقة حالمة لا تشبهني في شيء. مد يده و أسكته، استدار على الجانب الأيسر. الفراش الممتد أمامه ينم عن وسادة مرتجلة وغطاء شبه ملتو. أتراه لأنثاه التي كان من الممكن أن تكون أنثاي؟ ما أصعب أن تتجاوزك اللحظة وتدرك تخلفك عن مكان كان سيكون لك، وكنت ستكون سيده.

فُتِح الباب ببطء شديد. توجست فرائصي وازداد نبضي. تنبهت كل حواسي. من يا ترى هذا المقتحم للفضاء الآسر؟

جحظت عيناي لعلها تدرك ملامح الشريكة التي لم تشاركني حياتي لأني تعجلت الرحيل، أو لأنها تأخرت حتى لا تدرك أبعاد حياتي الضائعة. كيف يعاندني الزمن ويرسم خطاها ببطء شديد؟ كيف يتكالب علي في اللحظة التي تشرئب كل حواسي لرؤية أنثاي؟ الحاجب اللامرئي يكبلني ويمنعني من التقدم وأنا المتسرع لعلي أسرع من حركة الباب المنسحب كثغر يجيد الابتسام بحياء. دَلفَت الغرفة، لم تكن أنثاي. كانت خطوات كالحلم، يدا ممدودة في الفضاء تمسك بالفراغ ليساعدها على الخطو، شعرا ذهبيا مجعدا انسدل ليربك عينين حجليتين، أصابع من شهد تراقص الأرض مخافة السقوط. كم عمرك صغيرتي؟ وكيف جعلت طيفي يتمدد ليمسك بك وقلبي يرقص لخطوك؟

- **أجمل من الحلم أنت..**

كان الشبيه غير منتبه للحياة التي تحاول تسلق السرير إليه. الفرح الذي يمتطي السبل إلى حضنه دون كلل وهو الغارق في نومته وربما في حلم آخر، لم يثنها انزلاق قدميها الصغيرتين من على اللحاف الحريري اللامع, استمرت في المحاولة وقلبي مع كل سقطة يختصر لها الطريق إلى أن أصبحت قاب قبلة من حضنه, عيناه مغمضتان وقلبي مشرع بكل حواسه يرقبها. تأملَته قليلا ثم انحنت لتقبله على خده الأيمن. تنحنح قليلا، أدار وجهه نحو اليمين. قبلت خده الأيسر. ما زالت عيناه مغمضتين، استوت على السرير وبدأت ترقبه من جديد. لم يتحرك، امتدت أصابعها الصغيرة محاولة فتح قفل عينيه، انقض عليها، انتفضت، بدأ يدغدغها،

تعالت ضحكاتها، بدأت تستنجد بأمها، أنثاي التي هي أنثاه، والصغيرة التي كان من المفترض أن تكون صغيرتي...

- **أتراني كنت سأكون مكانه لو لم أستعجل الموت؟**

أي عالم هذا الذي أخذتني إليه أيها الشبيه، أتراها حياتي التي استعجلت الرحيل دونها؟ أم أنها فقط دعابة من هذه الحياة التي ما جادت علي أبدا بفرح يستحق المقاومة لأجله؟

أترى تموت أحلامنا بموتنا؟

أم أن هناك جزءا منا يبقى بعدنا ليحقق ما لم ولا ولن نستطيع تحقيقه؟

أمن الممكن أن يظل بعض منا في مكان ما ليكمل دورة الحياة، ويحقق الأحلام المؤجلة؟!! أترى للحلم دورة حياة تكتمل حتى وإن ترجلنا عن هذا العالم؟ استرقتني الأفكار لِأجد أني قد أضعت شبيهي الذي يبدو أنه قد أقفل عالمه دوني...

7

جلاس البيت الكبير

جلس محدقاً في السقف وفي أركان الغرفة، والمكتبة المرتجلة وصولا لصورة المرأة الغانية التي اقتناها من السوق القديم بخمس دراهم لتؤنس وحدته، كان ذلك منذ زمن ليس باليسير.

في البداية كانت تمتلك جرأة أكبر، فتستدير لتشاركه الحوار وتتعالى قهقهاتهما في الغرفة المعزولة حتى إنه سمح لها مرة من الاقتراب منه وأن تجالسه، خصلات شعرها كانت كلما تدلت لتغطي وجهها مد يده ليبعدها، كانت تتلبسه الرعشة فقط لو فعل ذلك، فينتفض واقفا رغم الشهوة الجارفة التي تتملكه ليحضنها وليمارس فحولته ولو في خياله، لكنه يتراجع دوما ويكتفي بقبلة يضعها على خدها. يدير ظهره متمنيا لها نومة هنيئة، فيحسها منكسرة تجر أذيال الخيبة لتعود إلى مكانها على الحائط، تتسلل أصابعه دون أن يشعرها بذلك إلى ما بين فخذيه، يحسه بكل انتفاضته لا يتجاوز عقل الأصبع، ينكمش لعله يستجدي النوم، ينبعث صوت جده مقهقها يردد في استخفاف

- **لست كجدك، جدك كان رجلا كامل الرجولة**

ويستمر طيف جده في رواية مغامراته النسائية التي لا تخلو من عدوان وخطف واغتصاب، وبينما هو يحاول تغطية أذنيه بيديه، تستمر قهقهات الآخر، مجلجلة الفضاء مخترقة مسامعه.

حاول كثيرا التخلص من اللوحة، لكنه لم يستطع فاكتفى بأن تركها معلقة على الحائط يجود عليها بقبلة كلما استعد للخروج، أو حين يعود ببقية قنينة خمر من النوع الرخيص بعد جلسة بالبحر المهجور، حيث يجالسها ليروي لها ما استجمعه من نكات الليل الموحش.

يتخيلها بنفس هيئتها في الصورة مقلبة وجهها في الاتجاه الآخر غير مستسيغة لحكاياته، ورغم ذاك يستمر بالحكي حتى يغلبه النوم على الأريكة المائلة، حتى إذا ما استفاق وجدها على نفس هيئتها فيصالحها بقبلة قبل أن يغادر من جديد.

لا يذكر متى حاورها لآخر مرة، فانشغاله بشخوص روايته أبعده عن أمور شتى. خربشته شغلته قليلا حتى عن التفكير في أمور قد تتعب نفسيته، فنسيان بعض الأشياء أو تناسيها على الأقل يمنحنا بعض الاستقرار الداخلي.

البيت الذي يسكنه كانت غرفه كثيرة وربما أكثر من اللازم، وإن كان لا يستغل منه إلا السقيفة فقط، وهي الغرفة التي كانت ربما تستغل في زمن مضى لأشغال التنظيف.

البيت كان إبان الاستعمار في ملكية أحد الأعيان. هو بيت عربي ضخم تتوسطه نافورة جف ماؤها منذ سنين، وحدائق سداسية الشكل تتوسط غرفا كبيرة بأقواس وأبواب مزينة بأقفال ضخمة صدئت مع مرور الزمن.

الغرف في أغلبها كانت مخصصة لاستقبال الضيوف آنذاك من الشيوخ والتابعين والأعيان، فجده لأمه كان من القواد الكبار في المنطقة، وقد عرف بصرامته وقلبه الميت، لم يكن رضاه بالأمر الهين فكانت العطايا على بابه والهدايا وحدها السبيل والمقابل لفداء أعمار الخائنين والمتلاعبين حسب قانونه، كان الآمر والناهي في مصائر الناس والعباد.

الروايات التي كانت تُحكى عن جده أشبه بالأساطير. كانت حكايات أبعد من أن يستوعبها عقله الصغير آنذاك، لكن الدلائل كانت تؤكد صحتها. كانت أمه ترويها له بفخر كبير أحيانا وبتوجس أكبر في بعض الأحيان، لكنه كلما امتعض من هول ما يسمع تنهره وتسكته ولا تسمح له بإتمام جملته، فلا أحد يستطيع أن يعقب عما كان يفعله جده القايد.

لا حدود بين الحقيقة والخيال فيما كانت ترويه زينب وما كان ليملك الجرأة على إسكاتها في كل مرة تبدأ بالتكلم عن قوة القايد وجبروته، لكن حقائق عدة تأكدت له عن تلك الفترة وعن حكم السيبة حيث اللاسلطة، والقوي يتحكم في الضعيف، ولا مكان لجبان ولا لمتخاذل في هذه اللعبة.

كثيرا ما كان يشكك في رواياتها عن أبيها القايد خاصة بعد أن كبر قليلا، كان يحسها تبالغ كثيرا إلا أن وجد أستاذ التاريخ أيضاً يكرر جل كلامها عن فترة القياد بالمغرب وعن الظلم والتنكيل ومساندة المستعمر، فهو لا ينسى عندما زاره أستاذه بالبيت بعد أن تغيب حصتين لإصابته بحمى ألزمته الفراش، فما كان منه إلا أن يعوده ليطمئن على صحته، فاستقبلته زينب بكرمها المعتاد وأسهبت بالثناء على شهامته ونبله وهي تقدم له حلوى الكعكاع المرشوم بحبات القرنفل وحلوى الغُرَيِّبَة البَلْدية وتصب له الشاي الذي تتقنه، فما كان منه إلا أن تمادى هو الآخر في مدح

الصبي وأخلاقه العالية واعدا إياه بأن يعيد على مسمعه درس التاريخ الذي تغيب عنه، فما أن بدأ بالتكلم عن حكم القياد حتى وجدها تضيف معلومات وتتكلم عن الحقبة كمؤرخ محترف مستعينة بالروايات التي كانت قد وصلتها من وراء الأسوار.

لم تكن زينب من محبي الحديث أمام الغرباء، ولا يدري هو ما الذي دهاها ساعتها لتسهب في الكلام؟ ربما لأن أستاذه كان غريبا عن المدينة وحديث العمل بها، أو ربما لأنها سعدت بعيادته لصغيرها المريض فأرادت التعبير حتى تبين للزائر المثقف أن التاريخ هو أمر مشترك بين الجميع ولا يحتاج أحيانا لشهادات عليا وإن كانت تدرك أن تاريخنا الخاص لم يخيرنا في اختياره لكنه أرغمنا على تقبله والتعايش مع ما يفرضه علينا.

ففي غياب سلطة عُليا قبيل وإبان الاستعمار وتواجد بعض القبائل المتمردة وندرة بعض الموارد، كان لابد من نشوب صراعات بينها مما أدى إلى انعدام الأمن وانتشار القتل والخوف والخطف والتنكيل.

هكذا آمن أن كل ما كانت ترويه له أمه هو حقيقة فعلا، كانت تركز على الروايات التي يرددها الخدم عما كان يحصل خارج البيت الكبير و داخله، وإن لم يكن يسمح لها بتتبع ما يقع عن قرب، لكنها كانت تجيد التلصص والإصغاء من وراء الأبواب.

كان بلقايد يصغي إليها وهو يتصبب عرقا ليس بفعل الحمى التي كانت تتلبس به، وإنما خوفا من أن يدرك الأستاذ تاريخ جده القايد حتى إذا ما التحق بعد ذلك بالفصل أحس أن العيون كلها تترصده وتشير إليه بالأصبع، يحسهم يشيرون إليه ويلمحون إلى جده وكل تاريخه الأسود. لم يكن ليحتمل الأمر، ستنهار أعصابه ويصاب بحالة هستيريا يغيب على

إثرها عن الوعي ولا يستفيق إلا وهو بغرفته وسط أبخرة أمه وتعاويذ الفقيه.

لم يكن يدري أكان عليه أن يفرح لأن والدته التي لم تجتز عتبة المدارس كانت تعرف تفاصيل دقيقة أكثر مما يعرفه أستاذ التاريخ، أم يحزن لأنه يحمل اسم أحد المساهمين في هذه الصفحة السوداء من تاريخ بلاده وأحد رموز السيبة والوجه المكفهر للتاريخ. لكن حتما كانت تلك الحكايات المقززة تتشكل أشباحا تطارد الطفل الصغير الذي كانت مساحته بالبيت الكبير تتحدد حتى يتفادى أن يضع قدمه في البراح، حتى لا تقع على نقطة دم، أو يسقط في حفرة طمرت بها جثت من غَدر بهم جده، أو يتعثر بصرخة مظلوم هنا أو روح معذبة هناك.

فالغرف كانت توظف للتنكيل والتقتيل حسب ما رصدت له في سبيل تحقيق رغبات وأحكام جده وتسلطه، فغرفة الفحم مثلا كانت لمن يريد قتلهم بالغاز السام كما فعل مع الأخوين العياشي حيث نودي على أحدهما فشك فيما قد يحل به وأَسَرَّ لأخيه بالأمر، لكنه لم يكن يملك لموعد القائد قدرة على التأخر فاستدرجه الخادم المطيع لغرفة الفحم. أدرك المسكين أن ساعته قد حانت، لم يطق أخوه الصبر عليه فجاء يطلبه، أدخلوه عليه وأغلق الباب عليهما معا.

أما غرفة الطعام فلها طقوس أخرى. فداخلها إما مكرَّم بأصناف الأكل والمشروبات والهدايا أو محروم من روحه بكأس سم. في حين أن غرف النوم قد تعددت الطرق فيها وتنوعت حسب مزاج وتفنن مساعديه، فمن الخنق إلى أفعى زاحفة أو عقرب أعمى يلدغ من يصادفه.

وغيرها من الغرف.. كل واحدة ولها نواميس لتأديب الخائنين حسب عرف الرواة، وكانت هذه الحكايات تروى للصبي بفخر فيرفضها عقله الصغير.

حتى إذا اشتد عليه الأمر وعلا صراخه فقد وعيه في نوبات صرع ينتفض لها جسمه، يكون نصيبه ليلة كناوية تحرره من الأرواح الشريرة كما حررت العبيد الذين كان يضج بهم الميناء في تهجير قصري وتعذيب وتقتيل ضمن موجات تجارة العبيد في الزمن الماضي.

لا يعتقد أن أمه كانت تحب جده بقدر ما كانت تهابه، فهي أيضاً ضحية أخرى من ضحاياه حين حرمها من زوجها ومن نسب ابنها لأبيه،لم تصرح له بحقيقة ما حصل فالمعلومات عن علاقة جده وأبيه كانت كقطع البُزل وليس هناك غيره ليلملمها حتى يدرك الحقيقة، بينما زينب تغرق في الصمت كلما واجهها بما توصل إليه

- **لم يقتله، كان موته خطأ**

لا تنظر إليه وهي تنفي الأمر ونبرتها كثيرا ما خانتها وهي تتكلم عما حصل، كان يشفق عليها فهو يدرك الخوف الذي يتملكها كلما تذكرت تلك الليلة، لكنها ما كانت لتجهر بذلك. الصمت المطبق الذي يتملكها كلما تكلم عن الأمر كفيل بأن يبوح له بما عانَته، وما زالت.

كان صمتها يغرقه في محاولة يائسة لتخيل شكل أبيه, يكاد يتعرف على ملامحه وإن لم يره قط، يحاول استجماع كل ما كانت تقوله عنه. ليس سهلا أن تجمع أشلاء صورة بناء على أوصاف مرتبكة. يحاول جاهدا فلا يرصد إلا صفحة بيضاء، وجها منبثقا من خلفية مشعة فتتآكل الصورة

المتخيلة لتصبح خيالا ضبابيا، أحيانا يحسه يبتسم له ومرات كثيرة يحسه جامدا، كم تمنى لو يستطيع أن يبوح له بما لم تستطع أمه أن تفعل

- **أعرف يا أبي أن زينب هي نغمتك التي لم تتم عزفها أبدا، لحن جميل في زمن لا يستسيغ إلا الصراخ والضجيج، موسيقى حالمة، ملاك أخطأ مساره فنزل إلى دنيا الجحيم. تقول أمي إنني أشبهك كثيرا وقد أجزم بذلك شكلا فقط، ربما، لكنها اختزلت الشجاعة والجرأة و حنانك عليها فيك وحدك ولم تبق لي إلا خضوعي واستسلامي لواقعي وتمردي عليها، ومحاسبتي وقسوتي، لم أستطع أن أكون أنت.**

كل منهما كان يغرق في ملكوته، بلقايد الذي يحاول استحضار طيف أبيه، بينما زينب تسترجع لحظات الخوف، فهناك أشياء لا تموت أبدا، فأبوها كان صاحب قلب ميت، لم تره قط يرأف بصبي ولا بعجوز وهو يأمر بحرق البيوت بمن فيها بدمٍ باردٍ و دون أن تطرف له عين، خاصة بعد تحالفه مع الاستعمار الفرنسي.

هو أيضاً لا يذكر من جده إلا تلك الملامح الجافة التي كانت تقابله في براح الدار وهو طفل، ملامح لوجه قاس ما عرف الابتسامة قط، بشرة داكنة وهزال مربك وهو يقعد على كرسي القصب الهش صارخا في كل من حوله، بعد أن منحه العمر وعودة الاستقلال إقالة اضطرارية من الاعتداء على حقوق العباد.

- **لماذا أعامل بهذا الجفاء أنا القايد حمو، لم يدركوا أبدا أنني كنت هنا لأجلهم، لأجل الحفاظ على بقائهم، وإلا لكان الاستعمار قد قتلهم واحدا واحدا، الآن يتعمدون تجاهلي، كم مضى من الوقت ولم يطرق أحدهم بابي!؟ لم لا تنظرين إلي وأنا أكلمك؟ أنت ابنتي، أنت أيضاً**

تعتقدين أنني ظلمتك، زوجك خانني، خان أباك، كلكم خونة، كلكم تريدون قتلي، هل وضعت السم في الأكل؟ لن آكله، لن آكل من طعامك ولو مت جوعا، تعالي هنا، تعالي، ذوقيه أنت أولا، كُلي، لم تموتي !!!؟؟؟ ربما تفكرين في خنقي وأنا نائم، لن أنام لن أنام.

لم يستطع جده الصبر ولا التعايش مع واقعه الجديد بعد ذلك التاريخ حتى أسلم روحه لخالقها بعد أن انزلقت بلغته بالزليج ببهو الدار ليقع فيرتطم رأسه بالأرضية.

كان هذا هو مصير الطفل الصغير الذي انشقت جبال الأطلس عنه منذ سنين عدة، بجلباب قصير ووجه شاحب لا يعرف معنى الابتسام، وضفيرة تختصر كل شعر رأسه المحلوق عن آخره إلا منها، لتظل وشما تعبر عن العادات التي ترشدنا إلى موطنه الأصلي.

كان صارما كتلك الجبال التي أتى منها، يختصرها في ملامحه وعناده، أقدامه الحافية تمرست على المشي على الأحجار المتناثرة وعلى الأشواك، مراهقا كان قد عود جسده على حمل الأثقال مقابل لقمة عيش، تعود الصمت حتى يهذب النفس الأمارة بالسوء والجوع حتى يعلم جسده الطاعة، وحتى يجمع الدراهم البيضاء لأيام كان هو سوادها، أدرك رغم حداثة سنه أن المال قد يكون سيدا إن اشتدت ظلمة الفقر. مع اليسير من الدهاء كانت نظرته أول سلاح امتلكه ليصوبه اتجاه ضحيته، نظرة صارمة تشل دفاع الآخر، قلبه الميت ما كان ليترك فرصة للمقاومة وليتحول مع مرور السنين إلى القايد حمو الذي ما دخل بيته إلا وهو على حصانه مزهوا بجبروته ومحاطا بعبيد مكبلين بالخوف منه ومن وشاية بعضهم عن بعض، حتى يبست ألسنتهم عن التذمر وما كان أمامهم إلا الطاعة العمياء.

قبل أن يموت ميتة جبانة بعد أن انفض الجميع من حوله و رأوه يترجل عن سلطته المزعومة ليلتحق بآخر ركب بالاعتذار عما اقترفت يداه واهبا أملاكه في إطار ما يمكن تسميته بالوقف، وليترك وراءه ابنته التي لا تفقه من الدنيا إلا رواية تاريخه الخارق والحفيد المكبل باسم ملطخ بالدم والجبروت.

" لا أحد يملك اختيار ساعة موته ولا الطريقة التي سيموت بها. لكن، هل يملك الموت حق الاختيار ليقرر متى يزورنا واللحظة الأقل توقعا منا، حتى يرسم موتتنا حسب ما نستحق في نظره؟ فكم من جندي مغوار قدر له أن يموت في فراشه، وكم من جاحد للنعم الربانية يموت ساجدا في بيت الله حتى وإن لم يدخله إلا في تلك اللحظة.

فبأي مقياس يختارنا الموت وبأي ترتيب؟ وعلى أي أساس يقرر أن يسلب الأرواح ليفصلها عن الأجساد؟ أتراه يجلس متربعا بعيدا يرقبنا حتى يختار موعده في اللحظة المناسبة؟ أم تراه يكون بداخلنا ومتعايشا مع تفاصيلنا اليومية، حتى إذا متنا متنا ببطء مع كل انكسار ومع كل خيانة وكل لحظة ضياع قبل أن يقرر أن يسحب الخيط ويتركنا نهوى أرضا كما هوى جدي بأرضية البهو؟ هو الموت من اختار أن تكون نهايته جبانة بعد أن خانته أقدامه وزليج البيت الذي ظل لزمن طويل يصول ويجول فيه حين كان سيف الموت الطائع لتلبية أوامرها وبطرق شتى، هل الموت يجيز التعامل بالخيانة بخيانة أكبر

-من ادعى القوة يموت بالضعف

جملة ترددت طويلا بعد العثور على جسد القايد وقد نزف كل دمه في حين كان الموت رحيما بزينب التي لم تفارق ابتسامتها الطفولية حتى آخر لحظة وهي تستسلم للموت في فراشها الدافئ، الموت الرحيم، يا ترى

كيف سأموت أنا؟ أي موت اختار لي القدر لأناله؟ لم أكن أبدا بالجرأة التي تجعلني أحلم بميتة كريمة، أتراه يسكنني الآن ويتفرج على جبني، لو كنت مكانه ماذا تراني سأختار؟ كل شيء إلا أن أموت بين أشباح البهو كجدي، حتى لو قدر لي أن أستسلم له في سقيفتي هذه وإن كنت أدرك أني نبتة طفيلية لا أحد سيهتم بموتها، وجسدي لن يمنحهم إلا رائحته المتعفنة

لا يدري كيف يسيطر الموت على تفكيره بهذا الشكل وكيف أنه كلما استغرق به التفكير في الأمر، استعصى عليه الحرف وتمنعت الكتابة. هو يجيد الكتابة على الموت من خارجها، يرسم شخصيته وهي تمارس موتها برضا واقتناع فلا أحد يجزم أن الموت هو نقطة النهاية ولا شيء بعدها، وإلا لِمَ ظل جده متربعا على كرسيه ببهو البيت يحاصره بتعليقاته متى عبر الممر ولِمَ كان طيف أمه يؤنس وحدته حتى الآن، هما يعيشان ولا شك من خلال وجوده ولأنه الباقي هنا، وقد تتكفل الشجرة اللعينة بعد موته بإنزال الستار على حكايتهم بأن تتمدد أكثر وتهدم البيت اللعين

مسـودة الإغــراء

كنت وحدي ممددا على سريري البارد من جديد، أرفع بصري، أدقق النظر، أقلبه، حياة حقيقية تمحى، طبشور أبيض على سبورة سوداء، تماما كلعبة تناساها الزمن يوم كنا صغارا بمدرسة الحي ونحن نتعمد رسم وجوه غريبة ثم نمسحها قبل أن يقتحم الأستاذ عتبة الفصل أو حين يصرخ فينا:

-من مسح السبورة؟

السبورة التي نقش عليها معلومات يمر عليها أفواج الصغار فلا تتعب أصابعه من رصها في كل مرة،

من مسح السبورة؟ نفس السؤال، أصرخ به أنا الآن، لكن ما محي ليس جملا ساذجة ولا تاريخا مخطوطا بألوان الطبشور. ما محي هو حياتي التي لم أعشها... كيف استطاعت هذه الذاكرة اللعينة أن تلاعبني بهذا الشكل وتنقلني من قمة الدفء لعالم بارد مشمئز؟

لم أكن متذمرا أبدا من وضعي وأنا المستسلم للموت بكل طواعية، لكن لا أحد يستطيع الصمود أمام هذا السقوط.

كيف يحملني الحلم للتحليق بعيدا ثم يسقطني من فردوسه للصقيع بهذه الغرفة الموحشة؟

كنت دائماً أَرسم أحلامي على مقاسي فلا يحزنني أن أستيقظ منها على حين غرة، فما خلقت الأحلام إلا لتلهينا قليلا عن قسوة هذا الواقع. ما عشته هذه المرة لم يكن كذلك،

كان واقعا مرادفا لحقيقة معاشة في مكان ما. من يا ترى كسر المرآة العاكسة للعالم المقابل؟

أتراها الخطوات التي اخترقت الغرفة الباردة دون أن أحس بها؟ أهي العيون التي انتظرتها طويلا؟ والآن تربكني وهي تستعجل رؤية ما خفي عنها تحت جلدي؟ لتجديد ممارسة سلطتها علي وفرض طقوس تختارها بالنيابة عني حين تتدخل لتعديل شكلي، فتظل مصرة على إقناعي بكونها صاحبة القرار الأخير المتحكمة في اختياراتي، من سمح لك سيدتي بأن توقظيني من عالمي الهلامي؟ انتظري قليلا فلم أجزم بعد بموتي.

لعل ما رأيته هو أنا بعد أن أتحرر من هواجسي وأوهامي، والصغيرة هي أملي الذي انتظرته طويلا، لا يمكن أن يكون ما رأيته وهما، وإلا ما معنى أن أراني كما رأيتني؟

ليتكِ كنت معي لتري الحياة كما رأيتها. أتعلمين أن في أميرتي الصغيرة شبه منك؟ أيمكن أن يكون الأمر صدفة؟

أتعلمين أن الأمر فتح شهيتي للمساتك؟

آه أيتها العابثة بكياني، لو كنت تجودين بلمسة أتحسس فيها بصمات أناملك، حين تعبث بجسدي كما لم تفعل امرأة من قبل.

أيعشق هذا الجسدَ الخامد، جسد عاش ومات وكله عطش للمسة الأنثى فيك؟!!،

وأنت الآن تعيدين رسم خطوط الذكورة فيه باحتراف غريب، تتأملينه بعشق، تقتربين منه عَلَّهُ يحس، يشعر، يتنفس أنفاسك...

اعبثي كما تشائين بقفازيك الطبيتين وعينيك اللتين تكادان أن تخترقا الزجاج الأبيض المكبر للالتصاق بمسام جسدي،

أي شوق هذا الذي تختزنه الأنثى بداخلها حتى تمتلك القدرة على تقليب جسدي الميت؟ !!

صوتك الدافئ مُتتَبِعاً لحركة أصابعك يأسِرني، يلتقط منها كل صغيرة، ظفر أصبع رجلي التي ما انتبهت أنه يوما ما قد بتر، وأصابع اخشوشنت من وقع زمن يرفض إلا أن نتشبه به... التفافُك كفراشة حول السرير الأبيض و أنت ترصدين أذنيَّ المتعبتين من اجترار السمع منذ قرون، وأنت تتوجسين همس الكدمات التي تناست نفسها واختبأت تحت شعر رأسي وفمي ولساني المتعطش لسبابة أنثى، الشعيرات المنتشرة كنَمْل ميت على صدري، صُرتِي، والقابع بين حَجرتين هناك تحت انحناءة بطني.

كلي أيتها المتمرسة في إيقاظي من موت اختياري، كيف يجود الموت بما لم تجد به الحياة؟وكيف لهذا القلب أن يبخس بنبضه في حضرتك؟

أميت أنا أم حي؟

مشرطك سيدتي اغتصبني عنوة دون أن يتأكد من أني ميت حقا؟

أما كان حريا بك أن تسأليني إن كنت كذلك أو لا؟! لو فعلت لأدركت الحيرة التي أغرقني فيها رفيقي الذي ما كنت لأصدق دعواه لولا ارتعاش هذا الجسد كلما مررت به، من همسك، من لحظك وأنت تتفرسين في تفاصيله المملة.

أنا أعلم الناس بحقيقتي وإلا ما معنى أن تستدرجك حواسي لتعبثي بي ولو من خلال رسم الثقوب على هذا الجسد الذي يحنُّ للأنثى فيك. لا يعقل أن أتقبل منك كل هذا التوغل في، ولو بأظافر من حديد وأصابع مقنعة بقفازات طبية، ولا أن تتربص بك مسامي وأنت تختالين بالغرفة الباردة بأنوثتك المتمردة في تحريض تام لذكورتي.

فبأي الحقوق سأطالبك الآن سيدتي؟

بحق التغرير بجسدي المستسلم لموتته بقناعة الأحياء أو بعبثك الذي تَعَمَّد تعريتي وكشف عورتي؟

من أين لك الحق فيما فعلت بي والندب التي تركتها ما كشفت إلا على أني حي بجسد ميت، ماذا تراك ستكتبين في تقريرك سيدتي؟ وما الحقيقة التي تكشفت لك بعد كل هذا الوشم الذي تعمدت رسمه على جسدي؟ أتراك ستقرين بميتتي متغافلة ما فعلته بي أنفاسك؟ أتراك لم تستشعري عروقه التي استنجدت بأناملك لتغرق الحفر في كل أعضائه؟ شعيرات صدره التي اشرأبت لتلتصق بك بعد كل هبة نفس منك، عضوه الذي أعاد تربعه بين فخديه ليغريك بتقليبه أكثر.

حي أنا سيدتي ولو بجسد ميت أو ربما ميت بجسد حي، من يدري؟!

أي لعنة تنتابني كلما عبرتِ مخيلتي، فأجدني أرص حروفك بحزم لعلي أعيد رسم حدودك بداخلي وأنا الأرض البوار التي ما ارتوت حبا ولا أغرقها همس شفاه ولا ارتعشت من نبض ولو عابرا.

كنت أنت، وأنت وحدك المؤرخة للعبور المنتظر إلى كياني، المسموح لها بإعادة رسم حواسي والملبية لاحتياجاتي، الموثقة للاحتراق المتأخر وأنا الذي تعودتُ أن أحضن المساحة البكر بداخلي وظللت أتفرج عليها وأريها لمن حولي كبكر تستعرض بكارتها بغنج الطهر وبتحسر على زمن ضائع.

غباء منا أن نعطي للغير الحق في الفرجة على ضعفنا، أن نمنحه الحق في الاطلاع على ما احتل منا وما لم تدسه العواطف والأقدار بعد، مربك هذا العراء المخزي فينا حين تكون أرضنا قابلة لكل الزراعات ومع ذلك تعافها البذور ويحول القَطْر دونها.

8

كتابة محرمة

جلس بلقايد مزهوا بأن منح شخصيته هذا التزاوج بين الحياة والموت يكاد يغبط نفسه لأنه حقق لها هذه الرغبة، هذا شعور لا يتأتى لأي أحد. تساءل كثيرا كيف استطاع فكره أن يرسم هذا الانشطار؟ وكيف استطاع بنفسيته المرتبكة أن يرسم هذا التوازن الشفاف بهذه الدقة و أن يمنحها كل هذا الرضا وهو الذي كان حبيس التشتت والضياع؟

أطال النظر بأوراقه ملتحفا إحساسه الغريب حول شخصيته الممددة بعد أن تم تشريحها ومع ذلك ما زالت تحس وتفكر وتتفاعل. أحس للحظة أنه شطح كثيرا بفكره لأنه ألبسها رغبته في مداعبة أنثوية، فإذا كان قد أجاز لنفسه أن يمنحها بعض الحرية لتغادر سريرها ولتتلصص على عالم الأحياء وأن تحلم وأن تبني مجموعة حيوات فكيف له الآن أن يتخطى الحدود ليجعل جثة شخصيته تتفاعل مع أنامل تغرس أظافر من حديد لتبين سبب الوفاة، فتثير رجولته؟ أي قارئ سيصدق هذه الترهات؟ بحثه المضني وراء الغيبيات التي كانت دائماً تؤرقه، تساؤله الأزلي حول الخط الفاصل بين العالمين، الصمت والضياع اللذان شكلا نمط حياته، كل هذا لا يمنحه الحق في المغالاة في تصوير شخصيته الميتة.

أخجلته حيرته، فهي لن تتنازل عن المطالبة بالرد الشافي، لكنه ظل صامتا، فما الموت وما الحياة بالنسبة له إلا وجهان لعملة واحدة، هو نفسه فقد الإدراك أحي هو أم ميت، وكل ما حوله مربك. كل شيء نسبي ولا حقائق ثابتة.

أغرق نفسه في كتاب جديد التقطه من مكتبته. لم تعد الكتب تشكل خلاصا للحيرة التي تنتابه ولا عادت تجود بالحقائق كما كانت تفعل حين كان يستنجد بما تحتويه وهو صغير.

لا العناوين العربية ولا الأجنبية ولا تلك المتخصصة التي اقتناها عنوة لتقربه من عالم البرزخ المفقود ما بين الحياة والموت، كلها ما كانت لتريحه ولا لتجيبه على السؤال الذي شغل فكره وانعكس على شخصيته.

كثيرا ما كان يتساءل هل يمكن أن نرسم شخصيات رصينة بفكر مهزوز أو العكس؟ تساءل هل أخطأ حين منح شخصيته الحق في التفكير بعد إعلان انتحارها. أما كان حريا به أن يسلمها للصمت، جسدا متصلبا ولسانا جامدا كما كل الأموات؟

فحسب المتعارف عليه أن الإقرار بالموت يكون بعد توقف الدماغ، لكن شخصيته ما زالت تفكر وتنتقد وتحلم، وإن كان جسدها باردا ومشرحا ينتظر فقط قرار التصريح بالدفن.

فهل يمكن اعتبارها حية أم ميتة؟

من البداية كان يحس أن انشطار شخصيته سيربك النص وقد يدخله في متاهة هو في غنى عنها، ولطالما تخيلها تحاكمه فيما لا يجد إلا الشرود جوابا. ينغمس في عالمه الخاص قلقا من أن يفقد ثقتها وهو الذي طالما تفاخر بتحكمه في سياق النصوص.

كان يتخيلها دوما تجلس أمامه وهي المنشطرة إلى جسدين متشابهين في الملامح، أربع عيون تراقبه، تخترقانه، تصرخان من سخافته، من عجزه و قد تلبس ببعض سلطة الكاتب المزعومة محاولا الادعاء بانشغالات غير مقنعة.

نظراتهما حولت الغرفة إلى طاولة شطرنج بمربعات بالأبيض والأسود ليس فيها إلا هو...

وهما يتجاذبانه عبر مربعات لونت فقط ليكتسي منها فراغ فكره وسواد مصيره، يتغامزان وهما ينظران لقلم الرصاص من جيبه، قلما اعتاد أن يحمله معه دوما حتى يكون مستعدا لالتقاط كل فكرة تستثيره وكل مشهد يقربه من إيجاد حل للإشكالية التي غاص فيها منذ سنين خلت دون أن يجد لها حلا.

يتخيلهما ينظران إلى بعضهما البعض، يقتلعان القلم من جيبه الصغير، يتقاذفانه بالأيدي، يسقط أرضا، تتسلمه الأقدام، تلمع عيونهما لفكرة جديدة، يرسمان شبكتين على أطراف اللوحة، يتحول المكان الفضاء الصغير إلى ملعب كرة قدم، ملعب بمربعات ملونة بالأبيض والأسود يتقاذفانه وهو صامت يرنو إليهما وهما كطفلين مزهوين بكرة الخيط بشغب مبالغ فيه.

رسما حول اللوحة جدارا من أسلاك شائكة تحول الفضاء إلى ساحة حرب يونانية وتحوله إلى ضحية.

مباراة كرة قدم برقعة شطرنج محاط بأسلاك حديدية ودون حكم، هكذا تخيلهما وهو جالس يدعي الانشغال عن سؤالهم الحتمي حول الحياة والموت.

أكان الأمر محض صدفة؟ أم أن هناك عَمْد وتواطؤ مع عقله الباطن المتسائل دوما حول الموت والحياة، فشخصيته مازالت تناقش فكرها ولو بجسد بارد، لكن الأمر غير كاف ما دامت تطالبه بموقف صريح وهو لا حول له ولا قوة إلا مراوغة الأحرف ومجاراتها. فكيف له بنقاش علمي احتار فيه الباحثون والمنظرون؟ وكيف له أن يجيب شخصيته ولا جواب يقنعنها ويقنعه قبلها؟

لم ينم جيدا تلك الليلة، فصمت شخصيته لا ينبئ بخير. لقد اعتاد منها أن تعبث بكل شيء في الغرفة، وأن تخلق منها مسرحا للحكاية، ومن جسده أيضاً جزءا من الديكور وهو الغارق في نومته، حتى إنه تعوّد ألا ينام إلا على ضجيجها وإحساسه أنها ما زالت مستمتعة بالنص الذي اختاره لها.

انتفض واقفا، تحسس جيبه باحثا عن شيء ما، لملم أوراقه المبعثرة هنا وهناك ثم غادر فيِ صمت...

لا يملك أمام هول الأمر الا الهروب، الخروج للتسكع بمدينته التي تعرف شروده الدائم كما يعرف هو تجاهلها له، فقد عاش سنوات عمره يراقبها من على سطح سقيفته.

مسودة ما بعد التشريح

لا شيء في الأفق سوى الانتظار، لا شيء غير الصمت يقتبس من العالم تجاهله لجسدي النصف العاري، للثقب فيه وقد افتضح أمرها حتى خجل دمها من أن يسيل، وملايين الأسئلة تحاصرني حول الحياة والموت، حول البقاء والرحيل.

مشتاق أنا للانشطار من جديد، لشبيه يجسد حيرتي، وأنا أقف على حافة الشك أنتظر عبوره الوقتي ليتحدد موقفه الأخير مني فيقتنع بميتتي ويسلمني للقبر أو يزيل عني آثار التشريح، ويستمر في إيهامه لي بأنني حي أرزق وهو يسافر بي عبر الشوارع الضيقة محاولا دفعي لتذكر تفاصيل لم أعشها سلفا أو ربما كنت سأعيشها لو أنني فعلا لم أنهِ حياتي بربطة عنق.

أين هو مني الآن بعد أن خفق بعض مني لأنامل أنثوية وهي تعيد رسم مسار جسدي؟ أينه؟ لعله ينجح هذه المرة في فك لغز الحياة والموت في اللحظة الحاسمة وهو الذي عاش منتظرا لرمشه مني، لعارض عابر ولم أفعل,

ما بي اللحظة أستنجد به وأنا الذي ما آمنت بطرحه أبدا. وحدي أستطيع أن أقرر الآن أن أحسم في أمري ما إن كنت حيا أو ميتا، أن أنثر حياتي أمامي بيقينها وحيرتها.

هل كان ذلك الطفل المنزوع من أهله وقريته حقيقة؟

هل كانت أمنا الغولة حقيقة؟ هل كان الهروب حقيقة؟

وهل وهل وهل..؟؟؟

وهذا الرفيق الذي استدرجني خارج جسدي وكبلني إلى حقيقة مربكة قبل أن يختفي وقبل أن أقف أنا وهو على شرفة المرآة لندرك أنها لا ترى إلا أحدنا، أكنت أنا من تراه أم هو؟

ما بالحقيقة تنشطر الآن وتتركني تائها أحاول ستر الجراح من على جسدي؟!

- **ماذا يمكن لك أيها المنشطر مني أن تفعل، وكيف ستتصرف؟ بأي عين سيراني وأنا أحصي ثقوبي جالسا على حافة البياض، منهكا، حزينا، شاردا، فقط أنا وأنت المنكسر ونظراتك منغرسة بالثقَب الغائرة بجسدي و الصمت ثالثنا.**

أكاد أراه متقززا أو ربما يراها تصريحا مفندا لادعاءاته، أنني مازلت حيا في حين أنني بدأت فعلا أصدق دعواه، أو ربما صرت أشك في الأمر على الأقل وكأننا نعيد رسم الحكاية من البداية بمفارقة جديدة فيبدأ الشك يساوره حول حياتي و تتلبسني الريبة حول موتي..

أمن سبيل للتأكد من ظنه وشكي؟ من يمتلك مفتاح السر لحيرتنا؟ ازدحمت القاعة بكل الأشباح التي قابلتها منذ لحظة الصرخة الفاصلة. الوجوه التي شهدت موتي وصرحت به، و الأخرى التي قابلتها بعد ذلك ونفت الأمر دون إفصاح.

كانت الغرفة الباردة تعج بشهود الحياة وشهود الموت وكان بينهم رفيقي صامتا غارقا في عالم مواز لي لا يكاد يتحرر من حيرتي، أحسسته في لحظة مستعدا أن يوقع على شهادة وفاتي ويسلمني للثرى دون أدنى إحساس بتأنيب الضمير، ولأول مرة رأيتني أتوجس من ردة فعله. في داخلي شارة الحياة في تصاعد مثير،فكيف لهذا الرفيق أن يتجاهلها؟

لم يكن الرفيق بحاجة لأن يتكلم ويفصح عما بداخله ونظراته كانت تقول كل ما يختلج في صدره من شكوك، كان صوته مسموعا أكثر من أي وقت مضى وكنت أحاول منعه من أن يخترقني باستنتاجه المعلن لوفاتي. كانت حواسه تنطق بما كنت أخشاه. حاولت أن أوضح له الأمر، وأن أفهمه أن الثقب بجسدي ليس بالغرابة المتوقعة لديه، فظهورها لا يشكل نشازا، وهو الذي تعود ألا يرى مني إلا عوراتي ونقاط ضعفي، فليعتبرها وشما آخر يضاف إلى هذا الجسد الذي تكالبت عليه الحياة بكل ظروفها القاسية، حتى صار أبرد من أن يحس أو يشعر بألم،

لم أرَ رفيقي حزينا كما الآن ولا صارما في قراره وهو يستعرض عليَّ تاريخي الذي أعرفه جيدا قائلا:

- **كيف لي أن أوهمك بالحياة وأنت الميت بسبق الإصرار، المقتنع تمام الاقتناع بأن ربطة العنق قد حققت مأربك وأسلمتك جسدا باردا لهذا العالم المتجاهل لأمثالك، أيكفي أن أرسم حيوات جديدة أمامك بصمت مضنٍ لتصدق الأمر، أن أغريك بما كنت ترسمه في مخيلتك وتراه أبعد من أن يتحقق؟ كيف لي أن أنسج لك عمرا آخر عساني أستبقيك على سرير الوهم زمنا آخر، وكيف أشغل عنك تلك الأنامل الطبية حتى لا تكتب تقريرها المفضي إلى دفنك، إلى تسليم جسدك المتهرئ إلى الثرى، أيمكنني بعد ذاك أن أرتب لك تقارير يومية حتى تعيشها وتعيش من خلالها عمرك الآخر، وإن تحت**

الثرى؟ أيعقل أن أنجح في ذلك بعدما فشلت مرارا عن ردعك عن الوساوس التي تجعل شخصيتينا تقفان على حافة المرآة دون أن تتواصلا؟ مرارا، صرخت في داخلك برغبتي في العيش، العيش العادي البسيط كـ يا أيها الناس، كنتُ بسيطا في تصوري للحياة ولم تغرِني أبدا أحلامك الدونكيشوطية، وتلك الملامح المصطنعة التي كانت تستهويك حتى تثير تعاطف من حولك. أكيد أنك الآن، ومن موقعك في هذه الغرفة الباردة، غير مستعد للخوض في هذه الأمور حتى وإن كانت السبب الأكبر لما أنت عليه اليوم.

أَنْتَفِض من موقعي المتهم الرسمي في ما أنا عليه الآن كما يقول رفيقي مستجديا لمنطقة وسطى لا تفقدني الباقي من الأمل في حياة ما جادت علي ببعض نبضها إلا بعد الاستسلام للموت، أَبحَث عن مكان أستبقي فيه على بعض نبضي ولو بجسد بارد موشوم.

- **ألا يمكن للحياة والموت أن يقفا على أرض محايدة، أن يقتنعا أن لكل واحد منهما حدوده، فلا يغلب هذا على ذاك ولا يتلبس أحدهما بالآخر؟**

استغرب ردي وإن لم يظهر أية ردة فعل، أطرق برأسه أرضا، غارقا في أفكاره من جديد، تحررت ملامحه من الحزن المتيبس كأنما يبحث معي عن أمل.

كنا مجبرين بالمطالبة بعالم بين الحياة والموت، عالم نتعايش فيه دون أن يعتدي هذا على حقوق ذاك، مؤمنين أن هناك متسع لكل واحد فينا نلج إليه متى شئنا ثم نتواعد على حدود عالمينا لنتناقش أمورنا الصغيرة، سخافاتنا، وحتى جرأتنا في تكسير المألوف، نرسم عوالم كنا سنعيشها معا، عوالم نختلقها من الفراغ و التشظي الذي كنا سنعيشه لو بقينا معا.

9

رقصة أخيرة

الليلة وعلى غير العادة شخصيته لم تبرح مكانها. أيمكن أن يكون استسلاما وهو الذي يدرك في قرار نفسه أن ما قام به معها كان اجتهادا منه ليسعدها فقط؟ أم أنها أدركت أن النقاشات التي استغرقت سويعات طويلة ليست إلا سفسطائية وتمطيطا للوقت؟ وليجعلها تحس أن ما تعانيه هو فعلا إشكالية ضخمة وأمر ليس بالهين الحسم فيه.

- **أتراها ماتت؟ كيف تموت و لم أصدر لها الأمر بذلك، ولا لمحت، أو لعله الهدوء الذي يسبق العاصفة أو الذي يليها،،إنها تشبهني كثيرا وتتلذذ كلما منحتها فسحة خارج هذه الغرفة، فهي مثلي تعشق موسيقى كناوة، ولقد منحتها كل الحرية لتشبع رقصا ولتتحرر من صراعها الداخلي، فهل يمكن أن يكون هذا السكون دليلا صحيا بعد ليلة كناوية صاخبة...؟ ربما!**

لعله السكون الذي يشعر به المرء بعد ليلة صاخبة على موسيقى كناوة، فشخصيته راقصت دخان الأبخرة طوال سويعات الليل تحت ضوء المصابيح الباهتة بأزقة المدينة مما قد يمنحها استرخاء اعتياديا في مثل هذه الحالات.

يحسها مرتبطة أكثر بأصولها الإفريقية أكثر منه هو المهجن ما بين جد برتغالي وآخر يفتخر بأصوله المشرقية.

قرر أن يغادر البيت ويترك لها مساحة من الحرية لعلها تحتاج أن تعيش انشطارها من جديد وان تعود لمناقشة الأمر بعيدا عنه.

تخطى الطريق المتعرجة وسط البيت الكبير مجتنبا الشجرة الضخمة التي لا يدري ما نوعها، والتي كادت جذورها تقتلع الزليج القديم بعد أن جعلت من الأرضية مجموعة من الارتفاعات التي طالما تعثر بها وهو عائد بالليل، ناهيك على جذوعها التي تسللت إلى إحدى الغرف مخترقة النافذة، حيث احتلت بعض غصونها فضاءَه فبات اقتلاعها يحتاج لجهد أكبر.

كان يحسها هرمة بعد كل هذا العمر وهي المثقلة بكل المظالم التي شهدتها. لم تعد تسمح له بتسلقها كما كان يفعل وهو صبي وربما قبل أن تُدرك هول الوجع الذي ستورثه وهي تنفلت من بين الزليج المزركش بركن بهذا البيت الكبير، ولعله هو الذي لم يعد يستطيع فعل ذلك، كانت تتأوه مع كل عصف ريح وتترنح من الألم ليلا، تمدد أغصانها كمراهقة ثائرة، تتخلص من وريقاتها الذابلة تباعا ولا تستبدلها بأخرى جديدة حتى تصبح عارية من ضعفها، من هسهسة الأوراق كلما هب نسيم الصباح، حتى أصبحت العيدان صلبة قادرة على تكسير النوافذ المتهرئة، محتلة كل فراغ في هذا البراح، نوع من التمرد اللا منتهى، شجرة رمادية في كل تفاصيلها، تنبت مع كل عود حكاية جديدة في مقاومة الموت المتربص بها، رافضة الاستسلام له مهما نخرها الرماد، تمارس تمددها ليلا كأفعى زاحفة، وتستسلم للسبات مع إشراقة الشمس،

- تمددي ما شئت فيكفيني أنك تحترمين مروري فلا تمتد أغصانك لتخنقني ولا السيقان لتوقعني أرضا، متشابهان نحن إلا في ضعفي وجبروتك، في استسلامي لموتي البطيء، وفي رفضك له بكل عنفوان الجدات، والحكايات التي كان تُروى لنا ونحن صغار. أحيانا أحس أنك هنا لأجلي أنا، وأنك متلبسة بروح طيبة لم أقابلها أبدا، أي ريح حملت بذرتك لتزرعها بقلب هذا البراح، وأي يد أوغلتك في هذا البهو، وأية روح سكنتك وعلمتك الزحف الأول نحو البقاء،

يخيل إليه أنها منشطرة مثله ما بين الموت والحياة، ما بين روح طيبة أنبتتها بهذه الأرض وما بين الأرواح المظلومة التي تلبست بها ومصممة على هدم المكان، فكل حجرة هنا ترصد ظلما مقترفا، وكل زاوية إلا وتردد صرخات الحرمات المنتهكة، لكنه لا يهابها فهو أيضاً مظلوم وهي تدرك ذلك جيدا، هو فقط يتفاداها حتى لا تعلق به وتحول لياليه إلى كوابيس كما حصل معه وهو صبي، فكثيرا ما يغبطها على حسها المتمرد عكس ما كان عليه و هو الذي استوطنه الجبن حتى أعجزه حتى عن الرحيل وترك البيت.

كانت المدينة قد بدأت تستيقظ من غفوتها الليلية، وحدها رائحة الخبز تملا الحواري، يحب كثيرا هذه الرائحة التي كانت ترافقه في سفرته للبادية وهو صغير.

حيث كان من طقوس السفر لبيت عائلة أبيه بالقرية اقتناء الكومير الساخن، وهي الكلمة التي كان يسمى بها هذا الخبز الطويل. أدرك فيما بعد أن كلمة كومير تعني أكل باللغة الإسبانية، فكانت الرائحة منعشة تملأ الحافلة المزدحمة فتمنحه إحساسا مضاعفا بجوع ينتفي بعد أن يصل

للبيت، وبعد أن يأخذ نصيبه منه، ليجد أن اللذة المتوقعة قد اختفت، إما لأنه لم يعد ساخنا أو لأن الجوع أوهمه بغير ما هي عليه.

لا يدري كيف وصلت تلك الكلمة الإسبانية لقريته التي يحسها بعيدة عن أي تطور حضاري، إلا أنها قد تكون من مخلفات القاموس اللغوي الذي تركه جده البرتغالي. فمن روايات أمه أنه كان بحارا غرقت سفينته ومن عليها ليقذف به الموج دون غيره على الساحل هناك، فاعتنى به أصحاب القرية، حتى استعاد وعيه واسترد نشاطه، فانغرس في حياتهم اليومية، بعد أن أحس أن لا وسيلة للعودة لبلده أو ربما كان ذلك اختيارا عن طوع، حتى إنه بنى بيتا هناك، واستصلح العديد من الأراضي، واقترن بإحدى نساء القرية لينجب منها أبناء يحملون من ملامحه الأوروبية الكثير.

استيقظ من غفوته وهو يقطع الشارع بعد أن صرخ فيه شاب كاد أن يدهسه بدراجته محملا بسلة الخبز.

- **بالك بالقايد**

الجملة التي تلفظ بها الشاب كانت كلمتان فقط: الأولى حتى يأخذ حذره وينتبه من شروده المعتاد، والثانية كانت تذكيرا سافرا لمن يكون، فهي لم تكن مجرد دعوة له لينتبه إنما كانت أكبر جملة قد تصور حالته وقد تعرّف بمن يكون، احتضن الجملة الخبيثة وأكمل سيره في صمت.

لا يمكنه أن يحاسب الشاب ولا أي أحد يناديه بهذا الاسم ولا أن يصرح أنه يمقته كثيرا رغم أنه مسجل بوثائقه الرسمية، وفي ذاكرة كل من عرفوه، ومع ذلك لا يحب أن ينادى به، ويحس أن في استخدامه تذكيرا مبطنا لتاريخ جده القرف، لذا يتعمد الصمت ويفضل عدم الرد.

أكمل سيره يلتمس الطريق إلى الساحة الكبرى، والتي عادة ما تكون فارغة في مثل هذا الوقت، يعتلي أدراج المنزه الضيقة، لينزوي بركن منعزل بالسور القديم، ويستمر في مراقبة المدينة وهي تستيقظ بتثاقل شديد.

يغمض عينيه كأنما يحاول رسم المدينة بداخله وهو يصغي لخطوات المارة التي تكون مسموعة في هذا الوقت، وأصوات النوارس التي توقظ السماء فرحة بدخول مراكب الصيد بالميناء القريب.

يحب كثيرا أن يعتلي هذه المنطقة من السور ليرقب البحارة العائدين بعد ليلة صيد في البحر محملين بسلال السردين التي ترشم طريقهم بالماء السائل منها، وبرائحة البحر المنعشة، يجرون أقدامهم المتعبة، فليل البحارة صيد ونهارهم نوم، يكاد يدرك من موقعه هذا رضاهم أو سخطهم على رحلتهم فعادة ما تجدهم صامتين متفرقين في الخطى، ظهورهم منحنية أكثر مع أن ما يحملونه ساعتها يكون أكثر خفة إن كانت رحلتهم غير مرضية، أما إذا كان العكس وجدتهم يُسمعون الساحة كلامهم العالي وصراخهم وضحكاتهم.

فالبحارة هم أبناء مدينته المدللين، يشعر أنها تحبهم أكثر، حتى إنها تحتفظ بصخبها لليل كي تمنحهم صمت النهار ليستريحوا من أعباء البحر.

يحب هو هذه المدينة المتقلبة في تعاملها معه، فتارة تعامله بحنان الأم وأحيانا يحسها تنبذه ومع ذاك لا يستطيع مغادرتها أو الكفر بشوارعها.

فقد ظل مرتبطا بالسور القديم كأعمى لا يبرحه إلا ليذهب لليم المهجور والموجود شمال المدينة في الطريق المؤدية لقرية أبيه.

البادية التي حرم من زيارتها بعد أن كان يقضي بها طفولته قبل أن يرغم على نسيانها بعد وفاة جده، حيث احتل سكان القرية بقية الأرض

المفروض أن يرثها هناك، بما أن نسب أبيه لذاك البرتغالي الذي قذفه البحر هناك يجعله غير مستفيد من تلك الأراضي.

كانت كلها أراضيَ مشاعة وليست في ملكية أحد، والمتعارف عليه أن أغلبها كانت غاباتٍ تُمنح لكل مطوِّعٍ لها، وجَدُّهُ طَوَّع مساحات عديدة منها، فكان منها ما استغله للزراعة أو لرعاية الغنم، في زمن لم تكن فيه ملكية الأرض بالأمر الموجب للتوثيق، فكانت المساحات تنسب لمن طوعها على حسب التعبير المشاع.

لكن بعد بدء سياسة التحفيظ العقاري الذي سنته الدولة، كانت الأراضي تسجل بحكم وضع اليد، وبالشهود الذين ما كانوا ليهتموا لقاصر اختار له القدر أن يكبر ببيت جده القايد حاملا اسمه، أو ربما لإحساسهم بأنه غني بما يكفي، وتلك القطع الأرضية ما كانت لتضيف له ولا لتنقص من ثرائه شيئا، خاصة وأن سطوة الجد القائد قد انتفت بموته وانتهاء سلطة القياد.

يذهب كثيرا لذاك الشاطئ المملوء بالصخور ليحترف الجري على رماله التي اتخذت جبالا في مواجهة البحر، في احتلال للغابات المجاورة، في ظاهرة عادة ما تسمى بالتصحر، مما جعلها بعيدة عن متناول الأسر التي تخاف الفراغ الذي يشكله المكان.

بينما هو يعجبه التسكع عاريا كما ولدته أمه كنوع من التحدي لرجولته المبتورة، فتبصره من بعيد يتعمد الجري على شكل دائري قبل أن يرتمي بين أمواج البحر الذي لا يغادره إلا بعد أن يبدأ الظلام يتسلل إلى الروابي القريبة، فيرتدي ملابسه ويعود مرددا أغاني ناس الغيوان في نشوة من رائحة البحر التي تعتلي جسده.

تذكر تمرده على ذلك الشاطئ المهجور، وهو المتسلق لأعلى الدرج متناسيا المدينة التي خلعت عنها رائحة النوم وقد احتل الفضاء أمامه آباء يمارسون أبوتهم رفقة صغار يتعلمون المشي بساحة كبيرة، تمنحهم أكبر مساحة لا يتعثرون فيها بأي شيء غير متوقع، يبتسم من خطو ذاك، ومن جري آخر لمنع سقوط صغيرته، فهو لم يجرب من الأبوة إلا تلك البسمات العابرة.

الأبوة بالنسبة له أمر مستحيل بعد أن أخطا الحجَّام بالمساحة المحددة لختانه، فانزلق مقصه ليحرمه من ذكورته، قبل أن تتدهور حالته، خاصة بعد إصابته بالتهاب حاد في وقت كان من العار التصريح بمثل هذه الأمور والإبقاء على العلاجات الشعبية مما أذى إلى استفحال الأمر.

قيل وقتها إن الحجَّام تعمَّد الأمر ردا على إهانة توارثتها الألسن حين تجرأ القائد بطغيانه على وشم نساء المدينة، وهناك من عزا الأمر إلى عدم دراية الأم التي لم تعرف كيف تتعامل مع مصاب الصغير، ففضلت أن تفتح بابها للخبرات النسائية التي تناوبت على تطبيبه من خلال استرجاع وصفات قديمة وخبرات سابقة.

تناوبت عليه صاحبات الحايك، بينما هو ما كان ليرى منها إلا عيونها المطلة من نقاب أسود والأيدي التي تعبث بالجزء المتبقي من ذكورته.

الحايك يكاد يجعل كل النسوة بحجم واحد، قوالب مكررة في كل شيء، متكررة إلى حد التقزز، ولم يستطع قط أن يميز كم سيدة كانت هناك وكم واحدة استطاعت أن تَطَّلِع على ضعفه وعجزه.

مضى وقت طويل، وكبر الصبي، وما زال الألم يعتصر بين فخذيه، مما جعله يطرق باب الطبيب الذي لم يجد تفسيرا عضويا لكل تلك الآلام، فرجح الأمر إلى مرض نفسي ونصحه بمراجعة الطبيب المختص.

لم يستطع أن يُكثر الشهود على عجزه، ماذا يمكن أن يقول للطبيب

بدا الجوع يتسلل إليه وهو يغادر مقعده المختبئ في أعلى السور، فقرر أن يسلم نفسه للمقهى الشعبي الذي اعتاد ارتياده والذي يتناسب مع إمكانياته المادية، كأس شاي وبعض الرغيف العائم في زيت الزيتون كفيلان بأن يمنحاه الإحساس بالشبع ولو لبعض حين، فهو عادة ما يتناسى معدته كلما أغرق نفسه في حياة شخصياته.

الطريق الثانية المؤدية إلى بيته تمر بين مقبرتين متجاورتين يفصل بينهما سور قصير لطالما تساءل: لِم تم شق الطريق وسط القبور؟ وكيف تحول المعبر الآدمي إلى طريق معبد تعبره الآليات بدل التفكير في إلحاقه بالمقبرة التي منع الدفن فيها لسنين خلت؟ تم بناء سور لا يتجاوز ارتفاعه المتر والنصف مما جعل القبور عرضة للعيان.

لم يكن طويلا بالشكل الكافي لكن طرف عينه عادة ما يديره نحو تلك القبور التي صفت بعشوائية وقد اعتلاها عشب متطفل يكاد يتخيله أشباحا كلما صادف مروره غروب الشمس، لذا لا تراه يقطع هذا الطريق إلا وقت الظهيرة وهو عائد من وجبة الإفطار المتأخرة بالمقهى الشعبي..

أحس بدوار خفيف، شمس وسط النهار تتعبه جدا وهو الذي حرم طعم النوم في الليلة الماضية لمجرد أنه اعتاد على ضجيج شخصيته التي أصيبت بالخرس أمس، أحس برغبته في النوم، لكن خشي إن عاد إلى غرفته أن يجدها كما تركها قبل خروجه، ورغم ذلك، طمع في بعض الغفو الذي بدأ يداعب جفونه.

ليس له من مكان يذهب إليه إلا سقيفته، أسرع وهو يرسم الخطو عبر حديقة البيت اليابسة من قلة السقي وغياب العناية أو ربما لعنة القايد.

استسلم للأريكة ولم يدرِ كم استمرت غفوته، حتى سمع صوت مؤذن الجامع القريب يعلن بأن صلاة العصر قد أزفت، تثاءب قليلا وهم بمغادرة نومته، لا استجابة للدعوة للصلاة، فهو لم يكن بالمواظب عليها كما يجب، وإنما لأن أمه كانت تنعته بشتى الصفات السيئة كلما رأته تجاوز العصر نائما.

كثيرا ما أخبرته أن الشيطان يتلبس به إن فعل، التفت إلى الطاولة التي اعتاد أن يرص عليها أوراقه، لا وجود لشخصيته، فزع من الأمر وبدأ يبحث في كل ركن من الغرفة الشبه فارغة، لا أثر لصاحب الجثة المشوهة.

أطل من النافذة عبر الممر الضيق الذي يفصل البيت عن السور العتيق، ثم تسَلل حافيا عبر الدرج في اتجاه الغرف الفارغة. وصل إلى بهو البيت الكبير قبل أن يتناهى إلى مسمعه صوت الإمام وهو يقول:

-جنازة رجل

أيعقل أن تكون جنازة شخصيته، انتعل بلغة قديمة مرمية بالبهو قاصدا المسجد، كانت الجنازة تغادر الممر محمولة على الأكتاف والألسن تهلل بالتكبير، لم يكن عدد المشيعين يتجاوز العشرين.

وهو الذي تعود من مدينته سخاء مشيعيها، فكان يرقبهم من نافذة السقيفة فيلمح العشرات، وأحيانا أكثر، فيراهم مهللين مكبرين مستعجلين أحيانا كمن تخلص من عبء ثقيل، وحتى من لم تسعفهم الظروف لمرافقة الجنازة لمثواها الأخير تجدهم يقفون على جنبات الطرقات خاشعين. لايدري إن كان في الأمر تقديس للموت أو رهبة منها.

تسلل وسط المشيعين وسار يرهف السمع لعله يتبين هوية الميت، كانت وحدها التكبيرات مسموعة، تقدم أكثر حتى صار مجانبا للنعش لكز أحدهم ليترك له مكانه في حمله.

سار وأذنه ملتصقة بالصندوق الخشبي وهو مصغ لعله يسمع أنين صاحبه، أصغى أكثر متناسيا خوفه من المقابر، جرب أن يتلمس النعش لعله يدرك مدى ثقله،

لا جدوى!

على حافة القبر كثر الكلام ولا جملة توحي إلى شخصية المرحوم، تفرس في الوجوه جيدا لعله يستبين عائلة الفقيد، لكن دون فائدة. جال ببصره عبر القبور الممتدة، استغرب وجوده بالمكان، أثارته صفوفها كتلاميذ بساحة مدرسة، أحس أنها تفرغ له مكانا بينها، لم يخطر بباله قط أن يرى قبرا يحمل اسمه، سرح ببصره بعيدا لعله يتحرر من الفكرة.

غير بعيد، لمح سيدة بلباس الحداد الأبيض ترش الماء على قبر جديد. تأملها تضع إناء طينيا، تغرقه في التراب بجانب الرأس من القبر ثم تسكب فيه الماء. جالت ببصرها قليلا تتأمل القبور كما يفعل هو. التقت عينها بجمعهم وهم يضعون الصندوق الخشبي في حفرته المحتملة واستمرت الأيدي ترمي التراب عليه.

أحس كأنما التفتت إليه هو بالذات، وكأنما تضعه أمام سؤال مربك لم يخطر بباله من قبل.

-من سيرش الماء على قبري عندما أموت؟

سرت بأوصاله رعشة مخيفة، حمل وعاء ماء وجده بجانبه، وأفرغ بعضه على تراب القبر، فالماء صدقة جارية كما كانت تردد أمه زينب عندما تزور قبر أبيها.

أعاده صوت الدعاء على المرحوم إلى سبب وجوده بالمكان، وأقنع نفسه أنه على الأقل عرف مكان دفن شخصيته إن تأكد له الأمر وقد يعود إليه فيما بعد – لو استطاع - ليسترد ميته الذي لم يقر بعد بموتته.

انهال بعض دمعه وهو الذي فقد القدرة على البكاء منذ زمن، ازداد نحيبه لما امتدت الأيادي تعزيه خاصة ولا أحد غيره يبكي الميت.

خيل إليه صدق حدسه وأن المرحوم هو شخصيته التي وضعها في محك بين الحياة والموت فاختارت في غفوة منه أن تسلم جسدها للثرى.

بكى كثيرا وهو يصعد الدرج وهو الذي لا يذكر أنه بكى موت أحدهم إلا والدته، وحتى هي نفسها، لم يبكها إلا وهو جالس بركن هذا البيت الذي اكتشف ساعتها شساعته المخيفة، حتى إنه لا يدري أيبكيها هي أم وحدته.

أحس أن حزنه قد أثقل كتفيه حتى عاد صعود الدرج أمرا عسيرا، أمسك بالدرع الحديدي وجلس ينتحب وقد تجدد يتمه، حتى إذا ما أدركته بعض الظلمة تحامل على نفسه مقتحما خلوته البائسة تعثر في عتبة الباب ليجد نفسه قد سقط من على سريره وشخصيته تراقبه وهي ساخرة.

لعن الشيطان الرجيم وقام يفرك عينيه، أدرك أن الكوابيس عادت لتحرمه حتى من غفوات نهاره، أدار وجهه حتى لا يفتضح أكثر أمامها، وحتى يمنحها فرصة أكبر لتكمل شغبها..

بداية الليل تعني له التسكع في عوالم تعرفه كما يعرفها، عوالم قد تفتح أبواب السؤال على مصراعيه، لكن الأمر ملزم جدا بالنسبة له حين يقابله اعتقاله في ركن ومحاكمته من أجل التصريح بأسباب نزول هذا النص وحيثيات هذا التأرجح بين دفتي هذا العالم المربك.

هما خياران لا يملك إلا أن يزج بنفسه في أرحمهما وأقربهما إلى فك هذا الاشتباك، وإن كان في قرار نفسه يتمنى لو أنه يستمر، خاصة وأن الأمر مثير جدا ويفتح أمامه آفاقا أرحب من البحث و الاكتشاف.

كم يتمنى أن تتقبل شخصيته أن في الحياة بعضَ موت وفي الموت بعض حياة، ولكنها لن تفعل أبدا، كما أنها لن تستسيغ أن هذا الانشطار الذي أصابها ما هو إلا وجهان لحقيقتنا، واحد يمثل الجزء الحي فينا، والثاني للموت الذي يتلبسنا حتى في غفلة منا.

كيف يستطيع أن يقنعها بذلك؟! انتفض من مكانه خوفا من أن يكون همسه مسموعا فلا يدرك ساعتها كيف سيكون تصرفها، فلعل أحسن ما قد تقوم به هو تسليم الدفة لأحد الخيارين واضمحلال الآخر، لكن الأسوأ هو مساءلته هو، وربما تركه وحيدا هو و فرضياته.

لم تمهله كثيرا فقد لمح الكتب تستخرج من مكتبته لتتحول لصواريخ ورقية تتطاير في الهواء ورقة ورقة، اختلفت أحجامها وألوانها المتراوحة من البياض المشع إلى الصفار الغامق، لم تستثن منها لا الكتب الجديدة ولا القديمة حتى تلمح جبران يعانق في طيرانه ابن المقفع والكتب الفكرية تصطدم في الهواء مع أوراق المجلات الخليعة التي كان يخفيها في درج مغلق لا يدركه الجن الأزرق كما يقول دوما.

حاول عبثا منع الكارثة، لكن دون فائدة، فلا صراخه أخاف صاحبه ولا هدوءه أربكه، فلم يكن أمامه إلا أن فتح محفظته على مصراعيها، تسللت إليها شخصيته كطفل مشاغب، أحكم إغلاقها وتأبطها وهو لا يدري أي سبيل سيسلك.

لا يدري لمَ تذكر أمه التي كلما لمحته يداعب الصغار قرب الباب إلا وتنهدت وتمنت أن ترى ذريته قبل أن تموت، لم يسألها أبدا هل تدخُل

أمنيتُها في خانة الآمال التي ستتحقق يوما أو الأحلام المستعصية، وهي أدرى الناس بحالته، وهي التي تجرأت مرة ودعت ابنة قريب لها أصيبت بداء الحمى الشوكية وهي صغيرة ففقدت حاسة النطق وهي في سن مبكر لتسأله رأيه فيها وهي تعدد مزاياها.

لا يذكر كم غاب عن البيت يومها وقد أصابته حالة هيجان كسر فيها كل ما وقعت عليه يداه آنذاك.

في بداية الليل عادة ما تكون الشوارع مزدحمة بالمارة العابرين بغير هدى، فقلة الشوارع بالمدينة وقلة المرافق تحبسهم في أماكن معينة ما بين غاد ورائح، حتى تجزم أنك ستجد كل من تبحث عنهم هنا.

لكنه هو لا يبحث عن أحد، ومع ذلك ملزم بأن يقطع الشارع وسط الجموع التي عادة ما تبادر للسلام عليه فعزلته الاختيارية التي يغوص فيها كل مرة تجعل سكان المدينة يبادرونه بالتحية دوما كعائد من سفر.

الكل يجزم بدماثة أخلاقه ونبل طبعه، فلا أحد سمعه يرفع صوتا ولا يرد بإهانة، وإن كان أغلبهم لا يدرك سر صمته وغيابه، وهو الذي لا تشغله لا زوجة ولا بيت ولا حتى عمل، وقد بلغ من عمره عتيا واشتعل المتبقي من شعره شيبا.

فهم لا يرونه إلا وهو متأبط محفظته.. صامت، يرنو للأماكن كما لو كان يحاول استعادة لحظات معينة، أو لعله يحاول أن يذكرها بمروره بها. باحثا عن شيء ما، وحده يعرف شكله ومعالمه. شيء يحس بوجوده لكنه لم يعثر عليه بعد ولا يستطيع أن يسأل عنه أحدهم، أحيانا يتجسد في فكره مجموعة ظلال أو ربما ألوان، روائح.. شيء ما يذكره بشيء ما، هو لا يستطيع تحديد ماهيته، لكنه يعرف أنه المصدر الوحيد للتصالح مع ذاته ومع مدينته، المعشوقة المتمردة

لم يكن يهتم كثيرا بالتعرف على الأصوات التي كانت تحييه، فإيماءة منه تكفيهم ليشعرهم أن سلامهم قد وصله، تحية بسيطة ويكمل سيره

قاطعا شوارع مدينته المعتمدة لشكل صليب في احترام مربك لتصميم مهندس فرنسي أبى إلا أن يترك بصمته بهذه القلعة المسالمة، مدينة لطالما اخترق أزقتها كثيرا

وهو مراهق يتعمد التخلل في الأزقة الضيقة ليعلن انتصاره عليها، وكثيرا ما تاه وهو صبي بها وأربكته أسماؤها التي كانت ترمز للقبائل التي استوطنوها بعد استقدامهم لها من طرف السلطان الحاكم إبان تشييدها منذ قرون خلت، أو من خلال تفرعاتها المتشابهة. وحده الصليب الممتد يرشده إلى الطريق كلما تاه، ويعيده للتناسق الذي يعتمد على خطين مستقيمين متقاطعين اصطفت الحوانيت على جوانبهما باحترام تام للتخصصات.

هنا تجد الجزارين في مكان معين وأمامهم بائعو السقط، وهو الاسم الذي عادة ما يطلق على الأحشاء الداخلية للذبيحة من كبد وقلب وما يليه.. ثم بائعو الخضار وبائعو الفواكه على حدة ومكانا داخليا لبيع الدجاج، وآخر للسمك في تنظيم بارع،

تنظيم لا يذكر متى تم تشويهه لتختلط الحوانيت كما لعبة الورق في تقزز، حتى لتجد السقيطة معلقة بدكان، وبجانبها محل لبيع الملابس أو التحف المخصصة للسياح الأجانب... كيف تبتلع المدينة هويتها المتناسقة لتتحول إلى مكان للعيش فقط لا حياة فيه.

البيوت القديمة هي أيضاً نالت نصيبها من الموت الملمع، فإقدام الأجانب على اقتنائها وتحويلها لإقامات سياحية جعل العائلة الكبيرة

تتقلص وتتعدد في شقق صغيرة قد لاتسع إلا الأسرة الواحدة ولتضيق معها حتى الأنفس عن تقبل الآخر..

كل هذه الأمور تربك إحساسه بقلعته التي يعشقها، لم يعد يتعرف على غجريته المدللة، طفلته الصغيرة التي فقدت عذريتها في غفلة منه، يستغربها وهي التي كانت تحتويه كأم رغم جحوده أحيانا وشغبه وتكاسله، يراها الآن غانية مراهقة تتعرى من تاريخها العريق ومن أصالتها، تتعمد أن تتحول كل ليلة لبائعة للهوى.

تلفظه بكل قوتها خارج أسوارها متأبطا للصداع النصفي وهو المنشطر بين تعلقه بها وتغيرها الكلي، محتضنا للصراع الذي يجتاحه كلما عبر تلك الشوارع، قلعته الصامدة تحولت في لحظة لبناء ورقي انهار تباعا.

كاد ينسى محفظته التي كانت شاهدة على كل تلك التحولات معه وحتى على ارتباكه واختناقه كلما عبر تلك الأماكن.

غادر المدينة المهجنة عبر باب دكالة، الباب الضخم الذي ينفتح اتجاه الشمال، وهو أحد المنافذ الستة التي كانت تَنْفَتِح في وجه الوافدين من التجار نهارا، وتغلق ليلا في زمن مضى، قبل أن تظل مشرعة بحكم اتساع المدينة خارج السور لتستقبل البشر والأفكار أيضا، كما قال أحدهم يوما وهو يعلق على كل ذلك وينسبه للآخر، هذا الآخر الذي لم يتسن له أن يسأله من يكون..

كان الظلام قد احتل المكان بشكل مخيف، لكن سعيه للتنفس بعيدا عن الفوضى التي صارت عليها مدينته، جعله يتمادى بعيدا عبر الطريق المعبدة، فتح محفظته، واستل منها أوراقا، لم تنتفض شخصيته، كانت تعرف أنها على موعد جديد من المكاشفة.

فصاحبه اختبره كثيرا، يعرف أن هناك لحظات فارقة، وحدهما السكون والصمت كفيلان بأن يجعلانه يعترف كمن يتقيأ حزنه، اليوم سينزف تاريخه وهويته.

كان يتطلع معه للمكان وهو يغمغم بأمور عديدة ممسكا به بيده اليسرى، والمحفظة ظلت عالقة تحت إبطه الأيسر بينما ظلت اليد اليمنى متحررة يحركها في الهواء.

وقف على بعد خطوتين من المقبرتين المتقابلتين، كتب على إحداها حروفا عبرية والأخرى رسم عليها صليبا وحروفا لاتينية. وقف وسط الطريق، لم يكن وحده، كانت أشباح الماضي واقفة هي الأخرى، العائلات التي قررت الرحيل قبل سنوات عدة وهي تقف على حافة الوداع دامعة ومحتضنة ليد أمه وجيرانها في سلام يشبه البتر، ووعودا كالعدم تنسج للعودة المرتقبة،

كانوا هناك، كما وصفتهم له والدته وكما تروي الحكايات المتناثرة، فهو لا يذكر حتى متى رحلوا، لكنهم فعلوا، تذكر كيف عاشوا متجاورين ولا أحد تجنى على كيان الآخر، فكيف تحولت مدينته الآن إلى مسخ..

منذ متى تحولت لبؤرة رفض الآخر. قبل أن تتخلى حتى عن أبنائها وعنه أيضاً وتصبح مدينة للغرباء فقط، يتسكعون في شوارعها، يقتاتون من سمكها المشوي، يرقصون على نغمات كناوة ويتشابكون بالأيدي على شاطئها ثم يرحلون.

أحس بثقل التاريخ، تذكر كل من مروا من المكان، بحث عن ملامحه فيهم، أحس بالغربة أكثر، شعر أنه مسخ، لم يعد هو، صار كائنا ضائعا، منبوذا ومهجنا.

فهناك أوصاف حين نكونها لا نعيرها أدنى اهتمام، نحسها ملتصقة بنا، جزء لا ينفصل عنا، يكاد يكوننا، لكننا نفقدها أحيانا بغفلة منا، وافتقادها يشعرنا بالضياع، شرع في استعراض الأوصاف التي كان يظنها لن تتخلى عنه لكنها فعلت محاولا أن يجد فيها ما قد يستعيده لعله يصير أقل ضياعا، فهو لا مشرقي كما كان يفتخر جده القائد، ولا إفريقي إلا باعتبار مكان المولد، ولا غربي كما كان جده لأبيه، ولا غني وإن كان يسكن بيتا كبيرا، ولا فقير لنفس السبب، ولا زوج ولا أب. وهو وإن يعتبر نفسه أديبا فكتابه الأول لم يتممه بعد، ولا يدري إن كان سيفعل أمْ لا، ولا بالشخصية القوية التي تستطيع اتخاذ القرار في أمر شخوصه، ولا بالضعيف حتى يترك لهما اتخاذ القرار الذي يرونه مناسبا ولا...

أحس أنه أصبح معلقا إلى لاشيء، أقدامه واقفة في الفراغ، تناهى إلى سمعه صوت الهجهوج، الآلة الوترية التي تجيد اختراقه، أصابع بارعة تجيد الرقص ما بين أوتار محكمة الشد لترتطم بالجلد المغطي لتجويفة خشبية، استقام ربما محاولا استعادة بعض الفخر بشيء ما وسط هذا الضياع، الفخر بهذه الآلة التي تعني له الكثير، وأيضاً استعدادا لرقصة وحدها تستطيع تحريره من آلامه، عقد يديه وراء ظهره متناسيا أوراقه، انحنى برأسه للأمام، ازداد إصغاء، ارتفعت نغمات الهجهوج في استعداد لدعوة القراقب الحديدية لتطلق ضربتها الموحدة ولتتوالى الضربات في تناغم تام لتعلن ليلة كناوية بامتياز.

تعالى صوت لمْعْلم مرددا كلمات إفريقية موغلة في التاريخ، تتابعت الأصوات تردد قوله، بَدَأَ يتمايل مع نغمات الموسيقى المكبلة بالمآسي، أغمض عينيه استقبالا للألوان التي تجيد الرقص على نغماتها، كان البخور قد تشكل أشباحا تجذبه للتحرر من مكانه وليشتد هيجانه مع انتفاضة

القراقب، الآلة الحديدية الكناوية، أَعْلَن نصفه الأعلى استسلامه للموسيقى، كثور مذبوح، ردد وراء لمْعَلم كلاما لم يستوعب منه إلا جملة واحدة.

- لَعفُو يا مُولانا

اشتد ارتعاش جسده مع ارتفاع الموسيقى وتسارعها،كانت الموسيقى ترسم خيالات هلامية في الفضاء، تتلوى فتنبعث منها ألوان متعددة. كل لون يرمز لانحناءة، وكل نغمة، رقص كما لم يفعل من قبل، تلبست به الرجفة لتتملك كل أطراف جسده، صار جسمه خرقة بألف لون، امتثل للنغم في استسلام تام، بدأت القراقب تعلن انكساراتها بضربات تتنازل فيها للهجهوج، لتمنحه شرف اختتام الليلة، بينما كان جسده يقلد استسلامها، ومع آخر ارتطام لأصابع لمعلم على وتر الهجهوج كان ارتطام خده بحافة الرصيف.

ولسانه ما زال يردد

- ل ع ف و يا م و ل ا نا

استفاق من غفوته، كانت صاحبة الحائك ذات حوافر الماعز واقفة تنظر إليه، كانت ملامحها واضحة رغم الظلام، جمال آسر، عينان حجليتان يحيطهما سواد الكحل ليجعلهما أكثر إثارة، لم تنبس بكلمة ولا حتى بابتسامة، كان مستعدا للاستسلام لها، نسي خوفه وهواجسه، انتظر كما الأساطير أن تستخدم قواها لتجعله يتبعها دون تردد، لم تفعل، نظرت إليه كما لو كانت تود أن تحرره منها، استجمع قواه، وقف، مد يده كما كان يفعل وهو طفل في استجداء لأنامل أمه، لم يكن هناك من أحد سواه، استدار في مكانه باحثا عنها، وحدها

أوراقه البيضاء المترامية على الإسفلت كانت هناك، لملمها واحتضنها كطفل صغير، وقرر العودة من حيث أتى..

تساءل كثيرا وهو يجر خيبته عائدا إلى بيته: لِمَ لمْ تسحبه وراءها كما فعلت مع من سبقه من الذين وجدوا بعدها منتحرين على أعتاب المدينة حسب الرواية المتداولة؟

أترى أجله لم يحن بعد؟ أم أنها لا تجذب إلا الفحول فلا أحد يعلم بما تفعل بهم قبل أن تسلمهم للموت، أتراها هيْ الأخرى تعرف حكايته لذا عافته؟

وصل إلى البيت والتساؤلات تتضخم بداخله، أحس أن الشارع الفارغ يخفي العيون المتلصصة عليه وهي تهمس بحكايته مع صاحبة الحائك وكيف أنها عافته لعجزه، أسرع الخطى.

- **من يا ترى قد أفشى سره؟**

انبثق الظلام عن أشباح الليل، تناهت إلى سمعه أصوات السجناء الذين لم يقبلوه بينهم وهو يضحكون بصوت عالٍ، كانوا واقفين على جنبات الطريق، جنبا إلى جنب مع الضابط الذي كان يتولى التحقيق معه، يدا واحدة مرة أخرى على إبقائه بعيدا عن صفة الانتماء إليهما، مرددين عبارات الخزي في حقه وفي حق اللقب الذي يحمله وتاريخه المشين، أسرع الخطو أكثر، كانت قهقهاتهم تلاحقه، تسلمته نساء الحايك وهن يهمسن بعجزه، كن متكررات لم يدرك عددهن، لكنهن كن يشرن إليه بأصابعهن بشماتة ويبصقن أرضا في تقزز منه.

جرى بكل قوته حتى وصل إلى البيت، فتح الباب الكبير المؤدي لبهو الدار كان جده هناك جالسا على الكرسي كما رآه وهو صغير، تخلص من جلسته ووقف ساخطا عليه لأنه لم يكن رجلا كما يجب ولم

يدافع عنه وعن تاريخه وقد استعاد قوته وجبروته، لمحه من طرْف عينه وهو يسرع الخطو ليمسك به، بدأ لسانه يستعيذ من الشيطان الرجيم، من جده ومن الأشباح التي يكفي أن يخترق باب البيت لتنتشر بالمكان.

اخترق براح البيت و الحدائق اليابسة متفاديا الشجرة الضخمة وهو يتمتم ببعض الآيات القرآنية، كانت همهمات الأرواح المظلومة مسموعة بصوت أعلى هذه الليلة، ورائحة الموت تنبعث من كل ركن من أركان هذا البيت، الدم المتعفن يسيل من الغرف المنعزلة ومن على حيطان البراح، بقايا الغازات السامة المنبعثة من الفحم المشتعل، كانت تتجاوز كل تلك الأماكن لتلتصق به.

كانت أمه أيضاً هناك تمد يديها إليه لكنه لمح نقش الدم على كفيها تماما كيوم ختانه فلا أحد يستطيع إقناعه ولو بعد هذا العمر أن تلك البقع الداكنة هي نقش الحناء، حاول الإفلات منها، صعد الدرج المؤدي إلى السقيفة بسرعة كبيرة، اخترق غرفته، أحكم إغلاقها وهو بداخلها، تأكد أن المفتاح قد أتم دورته الثالثة، ارتمى على فراشه، يكاد يعلن انتصاره على أشباح الليل مرة أخرى.

كانت الأوراق قد بدأت تنفلت من محفظته، نظر إليها وهي تتوسد أرضية الغرفة اقترب منها، تفحصها جيدا، أربكه صمتها، صمت بطعم الانهزام، ازداد توتره، قطع مساحة الغرفة الضيقة جيئة وذهابا وهو غارق في حيرته.

سمع صوتا هامسا خارج الغرفة، انتفض، لمح كوة الباب تكمل دورتها، لعلها أشباح البراح تتبع خطاه، قبل أن يستغرب الأمر، كان الباب قد فتح لتدلف منه شابة لا يدري أين لمحها من قبل، ملامحها

ليست بالغريبة، قبل أن يستفز ذاكرته أو ينبس بكلمة كانت قد مدت يدها لوزرة بيضاء لم ينتبه أنها كانت معلقة قرب طاولة هي الأخرى استغرب لوجودها بالمكان، مدت يدها بتذمر لوريقاته التي كانت على أَرضية الغرفة متمتمة بكلمات لم يفهم منها إلا سخطها على عمال النظافة الذين عادة ما يتركون النوافذ مفتوحة مما يجعل الهواء يعبث بالأوراق ويرميها أرضا، جذبت كرسيا من تحت الطاولة وجلست تقلب الأوراق محاولة إعادة ترتيبها.

تذكرها! إنها الطبيبة التي عاينت شخصيته المنتحرة لكن كيف لها أن تغادر أوراقه وأن تحيل غرفته إلى الحجرة الباردة ليجد نفسه هو أيضاً حبيسها.

لملم شجاعته وتقدم نحوها لعله يستوعب ما يحصل، لم تنتبه لوجوده، بدأت تستعيد ما سبق وأن سجلته أثناء عميلة التشريح وتدوين المعلومات على الورق، أيقن أنها تدخلت بقدرة قادر في نص هو صاحبه وأن عليه أن يتصرف، فبجرة قلم قد تعلن صاحبه ميتا، لم يستسغ هذا التدخل السافر في نصه، التفت لشخصيته، كانت ممدة على الطاولة ومغطاة بإزار كاد يفقد بياضه، بحث عن الآخر المنشطر عنها والمتشبث بالحياة لكنه لم يجده.

لعله أحس أن لا فائدة من البقاء، وأن الموت قد أعلن انتصاره على الحياة، ولا مكان وسطا بينهما. بحث عنه في كل أركان الغرفة، تحت السرير، وراء الباب، في أي مكان قد يشكل مأمنا له، استغل كونها منشغلة بكتابة التقرير.

حاول جذب أوراقه من تحت يديها، أحس بأنه عاجز عن فعل ذلك، صرخ بها، لم تنتبه إليه، عاد إلى لسرير الأبيض لعله يقنع صاحبه بالهرب، أزاح الإزار عن وجهه.

كان هو الممدد هناك، هو بملامحه وجسده، استغرب كونه نائما هناك دون حركة، حاول جذب نفسه، لم يستطع، أزاح الإزار كليا لعله يحرره، ازداد رعبا حين أدرك أن ثقوب التشريح كانت قد غطت جسده، هرب من جسده، التصق بالحائط المقابل، مد يده يتفحص جروحه، لم يكن جسده إلا صورة للجسد الممدد على الطاولة، خجل من عجزه المعلن بين فخذيه، عاد يستر عورته، عجز عن ذلك، استدار إليها، كانت تضع اللمسات الأخيرة على تقريرها، لم يستطع فهم ما كتبت، لكن اسمه كان واضحا في وسط الصفحة.

-اسم الحالة :العربي بلقايد

صرخ بها

-أعيدي النظر في الأوراق سيدتي فأنا لست المنتحر ذاك الفرق العمري بيننا كبير، تريثي سيدتي فلست ميتا، الورق ليس دليلا.

لم يعد بإمكانه أن يغادر الغرفة، وجسده الهلامي عارٍ، وجروحه مفتوحةٌ، والعورة المبتورة ظاهرة بين فخذيه.حاول أن يسترها فلم يستطع، وجد نفسه وحيدا مع جسده الممدد.

حاول فتح الباب، كان البيت مقفلا، أدار المفتاح دورة أولى ثم ثانية ثم ثالثة، لا جدوى، أحس أن المفتاح قد فقد أسنانه وأنه مهما أتم دورانه لا يفتح، عاد وتكوم في جزء من الغرفة بعدما وجد أن لا جدوى من صراخه، تساءل: أهو ميت أم حي؟

تردد صدى الجملة بداخله حين تذكر أنه نفس السؤال الذي طلبت منه شخصيته أن يجيب عليه؟

السؤال الحتمي حول ما الدليل على أنه حي، أو ما الدليل على أنه ميت، وهل نموت مرة واحدة، أم أننا قد نموت في كل مرة نفقد فيها شيئا؟! هذا ما استخلصه من كل ما يدور حوله.

كانت أمه تقول أن أباها القائد كان يحجز معارضيه أيام حكم السيبة في غرفة يضع فيها الفحم المشتعل ويتركهم يموتون ببطء ومع كل نفس يتنفسونه.

تساءل:

- **هل أنا الآن أعيش وقتا مستقطعا من الموت؟ أيعقل أن أكون أنا من أسلمت نفسي لربطة العنق تلك وبكل طواعية وأنا منتش بما قد يقوله الناس عني؟ أتراها مزحة مع الموت، لم يُغْرِنِي الموت أبدا للاستسلام له، فكيف لي أن أمازحه رغم كل ما مر بحياتي؟ كيف أشنق نفسي على عتبة نص أنا كاتبه؟ كيف أكون ذلك المنتحر، الشخص الذي تقدم إلى الموت بطوع إرادته، والمزهو بأن خلق ضجة وهمية إعلاميا ومجتمعيا، وابتسم للتفاهة التي تلفظها الناس عنه فقط ليثير الانتباه، سذاجة أفقدته حياته، وجبنٌ جعله يلبس القصة لشخوص طالما اختلقها لتكون فأر تجارب لأمراضه النفسية؟**

الناس لم تهتم لحياته وهو بينهم فكيف سيهتمون لموته الآن وتمشي وراء نعشه وتفتح ركنا خاصا له في جرائدها لتتكلم عن الانتحار الغامض، ألم يكن ميتا منذ زمن بعيد ولا أحد أحس به، أتحتاج هذه المدينة أن يتعرى أمامها كما تعرت هي من كل ما يربطها به ولتدرك أنها مثله مبتورة؟!

لم يعد هناك ما يربطه بها وهي التي تعمدت أن تحقنه بحقن السم والتي تنتشر بالذات البشرية شيئاً فشيئاً فيكون موتا بطيئا يدخل الإنسان في غيبوبة لا يدرك بعدها متى توقف قلبه عن النبض وعن ضخ الدم إلى الدماغ فيعلن الموت بعد ذلك.

ما معنى أن ينتحر؟ وهل يعني ذلك أنه بطمس كل الهويات التي تلبست به طيلة هذه السنين وحتى يستطيع أن يتقبل عريه وما هو عليه الآن،

هل هو مجبر أن يبري عددا كبيرا من الأقلام حتى تكون مستعدة لالتقاط شظايا الحكاية، وممحاة مستعدة لطمس ملامح عاش طيلة الثلاثين سنة الماضية ليرسمها على حيطان الأزمنة، مغريا كل من حوله بتصديقها، حتى كان في كل يوم يكاد يظهر بملامح تناقض ما كان قبلها؟

أتخيفك الحقيقة أيها الميت الحي؟

انزوى في ركن مقابل لجسده الممدد يصغي لصمت مدينته التي تنكرت له، والتي لم تمنحه أبدا حتى الإحساس بالعزاء من الواقع الذي وجد فيه، والتاريخ المربك الذي لم يستطع التحرر منه، فكم تمنى لو تضمه لصدرها لترفع عنه الخزي الذي التصق به وهو طفل صغير، قبل أن يدرك بعد ذلك أنها غارقة في الوحل أكثر منه. فلا أحد يدرك ما يختبئ وراء هذا السور العالي ولا ما قد تعلن عنه أبواب الذاكرة...

غريب كيف تنهال عليك كل هذه الذكريات وأنت الممدد هنا على سرير بارد وفكرك المتمرد يلاحق حقائق طالما تنكرت لها وتنكرت لك وأنت تلاحق المسافة العمرية لعلكما تلتقيان عند الفترة الساقطة من الذاكرة.

من أين يجب أن تبدأ؟ فكل ما حولك محاط بالموت وكل ما تلمسه يدك يتحول لرماد، حتى المدينة التي عشت متشبثا بسورها الذي لا تبرحه لأنك تحس أنها تعوضك عن حنان الأم، قد تخلت عنك وتركتك معلقا في الهواء من رقبتك، وسنوات عمرك التي عشتها بين جوانبها لم تعلق بذاكرتها فلست أول مترجل عن موكبها وهي التي تعمدت أن ترسم منافذها مقابر تلملم رفات الراحلين دون إحساس بالشفقة.

فلم تسلم نفسك للموت عن قصد وكأنها قد تحس بموتك وتستعيد ذاتها المفقودة وتتحرر من المسخ الذي أصابها فأنت في عرفها لست إلا عابر سبيل.

خطا نحو النافذة، كانت المدينة تمارس نومتها المعتادة، فهو يعرف دون سواه أنها مدينة تعشق النوم، وتستيقظ متأخرة كعروس مدللة. صرخ بأعلى صوته، لا مجيب، عاد يصرخ بجسده لعله يحرره من موتته، هدده بتصريح الطبيبة وكيف أنه سيحملونه للدفن في أية لحظة.

توجه للطبيبة يحاول أن يثنيها عن قرارها، لم تنتبه لصراخه ولا لوجوده في الغرفة، فهي لم تلمح إلا جسده المتروك على الطاولة، حملت الأوراق ورمتها فوق جسده العاري وغادرت.

جملة واحدة كانت واضحة جدا، وضعت على شكل طابع كانت باللون الأحمر...

تصريح بالدفن

ماذا يمكن أن ينتج عن عرس تزكّيه القوى الاستعمارية ومجتمع الخونة والانتهازيين، إلا عبداً خنوعاً مثلي، تركيبة حددت مصيري حتى قبل ولادتي، توليفة سقتني الخزي والذل، لا يمكن أن أكون إلا تركيبة غريبة للخيانة..، صنفاً جديداً عاجزا عن رفع إصبعه لتغيير ذاته..

شخص يقتل وطنه بالصمت والخمول

شخص مستعد أن يرسم وطنه خارج مداركه.. وأن يحاسبه لأنه وهو منعزل عنه ينتظر منه أن يأتيه مطبطباً كما تفعل زينب دائما، خائناً جديداً، هكذا أراني. عنصرا لم يستطع إلى الآن أن يكون وطنيا كما يجب..

نغمة نشاز في سيمفونية الانتماء..



ليلى مهيدرة

أديبة مغربية

من إصداراتها

- ديوان هوس الحلم
- مجموعة عيون القلب
- رواية ساق الريح

ISBN 978-9953-594-91-0





مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع

تليفون: 00961 3 359788 فاكس: 00961 7 241032

ص.ب: 11/3847 بيروت - لبنان

alrihabpub@terra.net.lb

ahmad.fawaz@live.com